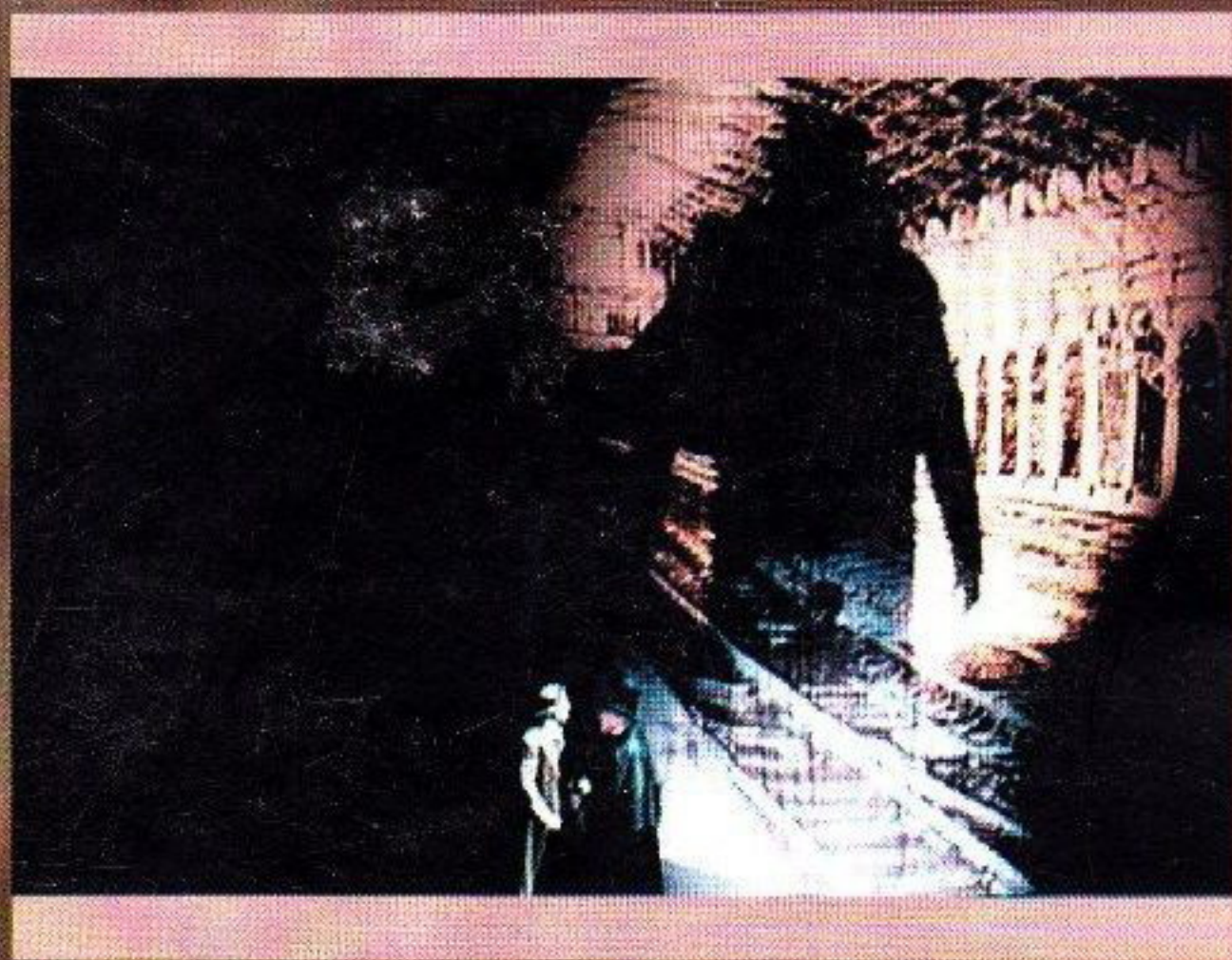


أشهر القصص اللصومية

أرسلين لهبين

7



التتبع القاتل

www.rewity.com

سما اليافوت

مكتبة معزودة

YOUSRA

نهر القصص اللصوصية

أرسين لوبين

الشبح القاتل

ترجمة

محمد عبد المنعم جلال

www.rewity.com

سماالياقوت

مكتبة معروف

قصر الأميرة النائمة

عرف راوول دابنيك وهو على قمة المرتفع الممتد فوق الأسطح الداكنة لبيو يونرفيل فكفت يده عن توترها فوق عجلة القيادة . كان الريف يتراعى أمامه فى هدوء . ورأى على يمينه ، خلال هذه الانفراجات نهر السين ، وعلى يساره شاطئاً صخرياً مرتفعاً راح يردد صوت محرك سيارته ذات الأربعين حصاناً .. أربع ساعات وهو يطوى الأرض مند أن غادر باريس ، انفجرت أثناءها إحدى عجلاته . وماهى إلا لحظة حتى امتلأت شوارع البلدة الهادئة بالضجيج ، وانعطفت السيارة إلى ممر جانبي وراحت تتأرجح فوق أرض صلبة . وأطفأ راوول مصابيحہ وانطلق بضعة أمتار فى طريق تحفه الأشجار ثم أوقف سيارته .

وتخلص فى حركات سريعة من نظارته وقلنسوته ووشاحه ثم هبط إلى الأرض وهو يقول :

- أه .. لاريب أنتى فى حالة يرثى لها .

ومس ياقته وشد جاكته وتثاغب .. وكان القمر هلالاً يلقى بنوره الباهت على النباتات والأعشاب . وعاد راوول يقول :

- والآن ، إلى الفصل الأول .

وانطلق فى درب يمتد عبر رابية من الحجر الجيرى يقوم على قمته هيكلى برج متهدم تحت سماء تنتثر فيها النجوم، وكلما تقدم فى

جميع حقوق الطبع محفوظة

للمركز العربى للنشر والتوزيع

معروف إخوان

مكتبة معروف

الإسكندرية - ٤٨١٠٨٢٨ / ٤٨٤٦٤١٠ فاكس - ٤٨٦٠٠٨٩ القاهرة - ٢٢ ٤٠٣٧٧٩٢

E-mail : maarouf 2004 @ hotmail . com

ص . ب . ٢٧٠ الإسكندرية

يقول : هذا صحيح .. أحياناً يتسرب الشك إلى قلبي .

أطبقت يد راوول على ذراعه كفخ من الصلب وقال :

- إننى أمنعك من الشك .. حتى إذا اختفيت .. يوماً أو شهراً أو سنة .. فمهما يحدث فسوف أكون هنا بعد ذلك .. هل تسمع ؟ سوف أكون بجوارك .. لا يمكن أن يقع لك شئ .. هيا ، تقدم يا صغيرى وقم بواجبات صاحب البيت .. تقدمنى يامولاي .

امتثل برونو وقد غلبته لهجة راوول الساخرة ومضى نحو آخر الفناء وهو يقول :

- احترس من الباب أيها الزعيم .. يجب أن تخفض رأسك والآن ، أمامنا إحدى وتسعون درجة .

وأضاء مصباحاً كهربياً وأرسل شعاعه نحو الدرجات الحجرية القديمة .. وقال راوول :

- أه إن المكان جميل .. وإن كان بسيطاً بعض الشيء .
وارتقى الدرجات فى خفة ورشاقة أمام برونو الذى تسارعت أنفاسه .

- تقريرك الآن يا صغيرى .. كم رجلاً بالقصر ؟

- ثلاثة .. وأحدهم يبدو مسنناً جداً .. لعله الحارس أو كبير الخدم .
- والآخران .

- فى عنقوان الشباب .. صاحب القصر وسائقه .

- ومن غيرهم ؟

- لا تتعجلنى هكذا أيها الزعيم .. لا أدرى مم صنعت ساقاك، فإننى لم أعد أستطيع أن أتبعك .. هناك الطاهية ، وهى بين الأربعين

طريقه كلما امتد نهر السين أمامه، براقاً يكاد الضباب يكسوه .. وفى أعلى الطريق ، فى الساحل المواجه ، بضعة أنوار متراقصة تشير إلى مدينة تانكارفيل، وكان ميناء هونفلور يقع هناك، خلف البرج المتهدم .. وراح راوول يرتقى الطريق فى غير جهد أو مشقة ، وبلغ سور القصر الذى يكاد ينهار وتسلل إلى فناء داخلى وأشعل قداحته مرتين .. وظهر فى جوف الظلام الذى يكسد أسفل البرج نور خافت أضاء مرتين .. وانتظر راوول ولم يلبث أن ظهر بجواره شبح يقول :

- أهذا أنت أيها الزعيم ؟

- بلحمه وشحمه .

- كان يجب أن تأتى مساء أمس .

- أخرتنى بعض المشاغل .. مبارزة وإفطار فى سفارة انجلترا وتنظيف السيارة وتشحيمها .. ضرورات النبالة يا عزيزى .

أمسك راوول بذراع صاحبه وقال فى صوت صارم :

- وتملكك الخوف أثناء ذلك أيها الأحمق ! قلت لنفسك إن الزعيم يتردد وإنه يجد المسألة أشد خطورة مما يظن وأنه تراجع اعترف أن ذلك ما كان ليضيرك .. يالك من شجاع !

- أوكد لك أيها الزعيم ..

- طبعاً ، طبعاً يا صغيرى برونو .. أنت لم ترتعد قط لحظة واحدة .. لم يخطر لك أبداً أن تقول لنفسك إن الزعيم يتمادى ، وإن البوليس سوف يلقي القبض عليه ذات يوم وعندئذ تنتهى أيامنا فى زنزانة ضيقة رطبة .

وضحك ضحكة فتية رنانة سرت عدواها إلى برونو فابتسم بدوره وقد أخلجته تلك الطاقة العجيبة التى تنبعث من راوول دابنيك وتمتم

المنظار ثم قال يسأل :

- وما الذى يلمح هناك ، على يسار الباب الحديدى ؟

أجاب برونو : إنها البئر .. هناك بئر فى ثخانة الجدار ، ولاريب

أنك ترى الدلو فوق الحلقة ؟

- وهل هناك كلاب ؟

- بولدوج واحد يرافق الفتاة دائماً .

- أ يطلقونه أثناء الليل ؟

- كلا .

- هل أنت واثق ؟

- ما كنت إلا لأراه . أؤكد لك أنه يبيت فى البيت .

ولان صوته بطريقة تكاد لاتلحظ فقال راوول :

- آه .. أرى أنك مازلت خائفاً .. ما الذى تخشاه ؟

- لاشئ .. غاية ما فى الأمر أننى أوثر أن نفرغ الليلة .. عندما

يدور بذهنى أننا قد نضطر لإعادة الكرة .

- يالك من جبان .. لو أننى تركتك تفعل فإنك تستولى على أى شئ

كيفما اتفق ، ودون أن تفكر فى الاختيار .. تجمع الفضيات

والمجوهرات ثم تبادر بالفرار كأى لص عادى عجباً ! ولكن من تظننى ؟

إننى من هواة جمع التحف والنقائس .. ومنذ ثلاثة أسابيع وأنا

أدرس هذه العملية وأرسم الخطط وأضع النقاط الأخيرة .. بل إننى

ذهبت إلى وزارة الفنون وتحررت كل شئ .. وقد علمت فى الوزارة أن

هناك بعض الشبهات حول صحة بعض اللوحات .. فلوحة ناتيه

مزيفة ، ولاريب فى ذلك .. والمكتب البديع المهور بتوقيع برسييه فونتيه

ما هو إلا تقليد متقن ، فقد وقع فى يدى تقرير الخبير وهو تقرير دقيق

الخمسين من العمر ، وطفلتان .. أعنى فتاة وصبية .. الأولى فى السابعة عشرة من عمرها والثانية فى العاشرة تقريباً .

- أهما أختان ؟ ابنتا صاحب القصر ؟

- أوه ، كلا ، كلا طبعاً .. الفتاة ، نعم .. أما الصبية فأعتقد أنها

قريبة للعجوز لأنها تقضى كل وقتها معه .

- وزوجة صاحب القصر ؟

- ليست هناك زوجة .. أظن أنه أرمل .

- وأين يرقد الجميع ؟

- فى الطابق الأول .. صاحب القصر والفتاة فى الجناح الأوسط ..

والسائق والطاهية ، وهما زوجان على ما أعتقد ، فى الجناح الأيسر

.. أما العجوز والصبية ففى كوخ صغير منعزل .. وقال برونو مازحاً :

- هذا هو مقر قيادتى العامة .

وأضاء الأغطية الملقاة فوق الأرض وبقايا وجبة من الطعام ، وقال

وهو يفخم فى صوته كما يفعل المرشد :

- والآن إلى الاستكشاف .

أخذ راوول المصباح الكهربى من يده واطفأه وهو يقول :

- مهلاً يا صغيرى .. لا أنوار فى غير مناسباتها .. هل معك المنظار

الصغير ؟

- ها هو .

وبدأ راوول دابنيك الاستكشاف ، وكان قصر يونرفيل يقع على

يمينه ، وتبين على الفور هيئته الضخمة وأسطحه المعقدة التى ينعكس

عليها ضوء القمر ويجعلها تبدو بلون الفضة .. وألقى نظرة طويلة عبر

وهبطا درجات السلم مسرعين واجتازا ضرباً من الأرض نبت فيها نوع من العشب النادر جففته الشمس .. وكانت السحب تمر من وقت لآخر وتغطيها بظلالها .

- أظن أن العجوز هو الذى يغلق الباب الحديدى ويضع المزاليج ؟
- أجل .

- وأظنه يقوم بعمله هذا بكل دقة ؟

- هو ؟ إنه لكفيل بأن يغلق الباب مرتين إذا استطاع ، وصدقنى إننى قضيت وقتاً طويلاً فى مراقبته .

- وهل يفد إلى القصر أناس كثيرون ؟

- لا أحد فيما عدا بعض الموردين .

- وأهل القصر ؟ هل يخرجون ؟

- سيد القصر، نعم .. فهو يخرج بانتظام فى سيارته مع سائقه أما الآخرون فلا يتحركون تقريباً .

تابع الرجلان طريقهما فى صمت .. وكان برونو يفحص راوول خلسة .. وكان هذا الأخير يرتدى ثياب المدينة ويضع زهرة فى عروة جاكته ويبدو أنه خرج فى التو من أحد فنادق حى سان جرمان .. وكانت هذه النزهة الليلية برفقة ذلك الشاب المتأنق شيئاً غريباً ومذهلاً وعجيباً بحيث أن برونو مر بيديه أمام عينيه .. كلا .. كان المنظر حقيقياً وكان قصر يونرفيل هناك، أمامهما، وقد تناثرت فوق أسطحه المداخلن ودورات الهواء وواقيات الصواعق .. وقال راوول :

- إنه يرجع إلى عصر النهضة ، وهو قصر جميل ، ولكنى لا أحب كثيراً هذا الجناح الذى تدل هيئته على أنه بنى فى عصر لويس الثالث عشر .

مرفق به رسم مفصل لأن الدولة أوشكت أن تشتري القصر هل تريد أن أخبرك أين توجد فاترينة النياشين والميداليات ؟ فى آخر المعرض .. ومجموعة الاختام ؟ فى وسط القاعة ، أمام لوحتى فراجونار ولاتور .. هكذا يجب أن يعمل كل من يتذوق الفن ويهوى جمع التحف والنفائس .

وعبر وجه راوول المائل نحو وجه برونو عن جرأة هادئة تشوبها السخرية ، وأحاط رووال كتفى الشاب بذراعه وقال يخاطبه :

- اعلم يا صغيرى أن أرسين لوبين يختار وينتقى وأنه لا يرضى ببضاعة لاتباع كما يفعل أصحاب الملايين الامريكيون .. إننى أتفقد المكان أولاً ثم أخذ ما يروق لى فيما بعد .

وكان يبتسم فى هدوء وهو شديد الثقة من نفسه بحيث أن برونو هتف يقول :

- حسنا .. هيا بنا أيها الزعيم .

- مازال أمامنا متسع من الوقت يا صغيرى .. إذا أثرت الحياة الأخرى، وإذا اردت أن تكون الشاب الوسيم الذى يدفع الأرملة الثرية ويجمع التبرعات فى قداس الكنيسة سان هوبير فانت وشأنك .

- كلا أيها الزعيم .. إنما كنت اعنى ...

- عندما تواتى الفرصة شاباً مثلك لى يكون جنتمانا حقيقياً فله الحق فى أن يتردد .

- أوكد لك أننى لا أتردد .

وعندئذ تتمم راوول فى قوة مكبوتة غمرت برونو كفيض من السعادة فقال :

- إذا كان الأمر كذلك فهلم بنا .

داه القفل لحظة عابرة ثم قال :

- ليس هناك مانع .

وهي اللحظة التالية كانا في الردهة ، وأعاد راوول أدواته إلى جيبه وهمس قائلاً :

- أمسك بكتفى .

وفي ببطء تقدما الواحد بعد الآخر في الظلام وسط صمت مطبق ..
بل إنهما لم يسمعا عمل الديدان الغامض في خشب الجدران القديم ..
كان كل شيء في البيت ينام نوما عميقا .. وتوقف راوول ومال فوق
أذن برونو وقال :

- احترس .. هذا هو السلم .

ووضع قدمه على أول درجة وأحس بأنها تلين قليلاً ، وفجأة ومن
مسافة بدت له بعيدا جدا ارتفع رنين جرس راح يدوى في إصرار ..
وقال راوول :

- اللعنة ! جرس إنذار !

وراحا يصغيان وقد تجمدا في مكانهما .. واستمر الجرس ، فوق
يدوى دويه المكتوم ، أشبه برنين جرس منبه صغير .

وتمتم برونو متلعثما : فلننصرف !

- اسكت أيه الغبي .

راح ذهن راوول يعمل في سرعة مذهشة .. وأخذ يفكر وقد توترت
أعصابه وضم قبضته في حين استمر الجرس في دويه الصارخ عبر
غرف القصر الصامتة .

وعاد برونو يقول : فلننصرف .

وتقدما بمحاذاة الجدار الذي يفضى إلى الباب الحديدي العمومي
واكتشفا البئر ، وهي بئر قديمة نحتت في ثخانة السور بحيث كان
يمكن استخدامها من الخارج ومن الداخل على السواء .. وكان هناك
سياج حديدي يفصلها إلى جزئين ، ولم يتردد راوول ووثب فوق حلقة
البئر ولس قمة السياج باصبعه ، ثم وبخفة عجيبة ارتفع في صمت
واختفى في الناحية الأخرى ، وصفير خافت نبه برونو أن الطريق
خال ، وما هي إلا لحظات حتى كان الشاب قد اجتاز العقبة بدوره .

وهمس راوول : ألم تجد مشقة ما ؟

- كلا أيها الزعيم .

واستطاعا عندئذ أن يتبيننا بصورة أفضل موضع المبانى ، ففي
آخر فناء فسيح يقوم القصر نفسه وعلى جانبيه جناحان يمتدان حتى
الباب الحديدي كضلعى مثلث .. أما ساحة الشرف ببلاطها الكبير
اللامع فكانت أشبه بمستنقع هادئ .. وترك راوول كنف الحائط
وخرج إلى النور فهمس برونو :

- سوف يروننا .

- وبعد ؟ .. ليس لدينا نوايا سيئة .. إننا قدمنا لمشاهدة مجموعة
التحف كما يفعل السياح .

ومضى راوول نحو باب القصر ولكن برونو أسرع يقول :

- من الأوفق أن ندخل عن طريق المطبخ .

- عن طريق المطبخ ؟ كالبديل أو صبي الجزار؟ تأدب يا بنى .. ارفع
رأسك يا برونو .. لاتنس مركزك ولا مركزى ، فأنت مع دابنيك .

وضحك تلك الضحكة الفتية التي طالما أثارت حيرة سامعيه وفرقع
أصابعه في غير اكتراث وارتقى الدرجات الأمامية للقصر .. ولست

ك فقد استمر، محدودب الكتفين متوقفاً في كل لحظة أن يتلقى
رصاصة تنفجر في وجهه .. والتقت يداه بباب ثم بأخر .. كانت
البسطة كبيرة ممتدة والاستكشاف الأعمى لا ينتهي .
وتمتم راوول يحدث نفسه : هيا يا ماركيز ، واجه العدو والابتسامه
على شفيتك .

وأضاء مصباحه الكهربى من جديد ، وردد نوره فى كل الأرجاء ،
كانت البسطة مقفرة .. وشيئاً فشيئاً استولى عليه غضب بارد .. كان
الجرس لا يزال فى رأسه وفى أعصابه .. وسار وهو يضرب الأرض
كعبيه نحو باب الغرفة التى ينبعث منها رنين الجرس وفتحه وكشف
نور المصباح فرشاً ضخماً وامتد حتى الوسادة وتوقف على وجه
حامد شاحب .. وتمتم راوول :

يا للشيطان ! .. إن العميل ليس وسيماً .

كان الرجل أصلع ، له حاجبان كثيفان شقراوان يكادان يخفيان
عينيه المطبقتين ويكسبانه سمة غريبة قاسية .. وتقدم راوول منه
وقال :

هل تسمح أيها الأمير ؟

ورفع الغطاء ، كاشفاً عن صدر مشعر، وفجأة انفجر ضاحكا حتى
كاد أن يختنق ، وتحرر من توتر أعصابه مرة واحدة وتمتم يقول وهو
يضغط على مفتاح الاباجورة التى بجوار الفراش :

التمس معذرتك ، واسمح لى أن أقدم نفسى: راوول دابنيك ، من
بلاء جسكونيا .. ألا تعرفه ؟ وأرسين لوبين ، هل تعرفه ؟ جرس
الإنذار هذا مزعج ، أليس كذلك ؟ لعنا نستطيع اسكاته .. كلا .. كلا ،
لا تزعم نفسك أيها الصديق العزيز .. إن أجراس الإنذار ليست بغريبة
على .. رأيت ؟ هذا أفضل .. إذن فأنت ترفض أن تستيقظ لكى لا

قال راوول فى لهجة جافة : أتريد أن تهرب كالأرنب ؟

- ولكن .. إنهم سوف يأتون .

- لن يأتوا فوراً فهم أكثر منك خوفاً وذعراً .. وقبل أن يستقر منهم
العزم وأضاء راوول مصباحه الكهربى وسلط شعاعه نحو باب
الردهة ، وقال :

- انتظر على عتبة الباب .. عتبة الباب ، مفهوم ؟ لا أحد يستطيع
أن يراك من فوق .. وعند أول سحابة ، عليك أن تتسلل بطول الحائط
حتى البئر حيث تقوم بالمراقبة .. وإذا رأيت أى شىء غير عادى فقلد
ما تريد من الأصوات ثم بادر بالفرار .

- صوت البومة ؟

- إذا شئت . وسألق بك عند البرج .

- وأنت أيها الزعيم ؟ والكلب ؟ سأتكفل به .. امض وأسرع .

وفى بضع خطوات سريعة بلغ برونو آخر الردهة .. وأطفأ راوول
مصباحه وكان جرس الإنذار لا يزال يصلصل فى إصرار وبدون
توقف ، ولكن لم يتحرك شىء ولم ينبج الكلب .. ولو أن أحداً ما سار
فى الطابق الأول لقطقت الأرضية الخشبية القديمة دون ريب .
وعلى كل حال لو أن سيد القصر صحا من نومه فجأة لأضاء النور
كان يجب منطقياً أن يحدث شىء ما .. أو أى صوت .. وأن لا يستمر
هذا الصمت المخيف الذى يزيد فى رهبته صليل الجرس المستمر .

ارتقى راوول السلم وهو يتوخى الحذر الشديد .. أين الكلب ؟ ألن
يهجم عليه فجأة وينشب أظافره فى عنقه ؟ وأى فخ منصوب فى غرف
الطابق الأول التى يملؤها الجرس برنينه المتتابع الذى لا ينقطع ؟
وجفف راوول وجهه .. كان من الجنون أن يستمر فى صعوده ، ومع

موسم الصيد قد انتهى ، وغليوم (١) لم يعلن علينا الحرب بعد .
وأعاد المسدس إلى الدرج وتحول إلى الباب المفتوح وأصغى
لحظة .

- ألم تسمع شيئاً ياهوبير ؟ خيل لى ..
واطفاً الاباجورة .. أكان برونو هو الذى أطلق هذه الصرخة ؟
وداخله إحساس شرس .. قاس بأنه ليس وحده فى القصر وأن
رائراً آخر يتنقل فى مكان ما فى ظلمات الطرقات والغرف .. شخص
هرص قبل أن يستكشف القصر على أن يخدر الجميع ، وابتداءً من
سيد القصر حتى الخدم .. وهمس يقول محدثاً نفسه :
- لا تتحرك .

وأسرع إلى البسطة وهو صامت كالشبح ، وانحنى فوق الدرايزين
الحجرى ، ولكنه لم يسمع غير الدم الذى يدوى فى عروقه .. وأضاء
مصباحه الكهربى من جديد وفتح غرفة أخرى وما كاد يفعل حتى ارتد
إلى الوراء على الفور .. الكلب ! البولودج !
ولكن الحيوان كان ممدداً على صدره وخطمه بين قائمته ، ولم يبد
أية حركة .. وانحنى راوول وحك رأسه ، بين الاذنين .

- كلب ذكى .. لقد عرف السيد ..

كانت الحدقة ثابتة ومتسعة تحت الجفن المحتقن شيئاً ما ..
غلب المخدر الكلب وبقي فى وضع المترصد ، كاشفاً عن أسنانه ..
واعتدل راوول وسلط أشعة مصباحه على الجدران والسجادة والطاولة
والفراش ، وللمرة الثانية وقف مشدوهاً ، وارتسمت على شفثيه
ابتسامة كأنه لا يصدق ما يراه .. وتقدم ثلاث خطوات ثم توقف

(١) غليوم الثانى .. تدور أحداث هذه الرواية فى يونية سنة ١٩١٤ .

تضايق هذا العزيز لوبين .

وإذا توقف رنين الجرس دوى صوته هو فى أرجاء الغرفة بطريقة
غريبة .. وأسرع فخافت من صوته وهو يقول :
- ولكن إذا كنا لانصحو فلماذا هذا الجرس ؟ هذا أمر لا يقره
المنطق .

ورفع جفن النائم باصبعه ثم قال :

- مخدر .. فهمت الآن .. أنت إذن تعانى من أشجان خاصة وتريد
أن تنسى كل شئ .

كان يهزل ولكن عينيه كانتا تتفحصان الغرفة وتلاحظان كل نقطة
:- جلود الدب المفروشة على الأرض وقطع الأثاث الثمينة ومقياس
الوقت المصنوع من الذهب الخالص فوق الطاولة ، وبجواره محفظة
ضخمة من الجلد الروسى .. وفتح المحفظة ثم قال :
- كلا .. كلا .. لن أستغل ضيافتك لى .. ثم إن النقود لم تعد
تهمنى .

ووجد بطاقات زيارة ورسائل وأوراق باسم هوبير فيرانج .. وقال
وهو ينظر إلى الرجل الضخم ذى الحاجبين الشرسين :

- هذا جميل يا هوبير .. إن آل هوبير هم فى العادة قوم سلسلوا
القيادة معتدلوا المزاج .

وأعاد المحفظة مكانها وفتح درج الطاولة واستطرد يقول وهو
يخرج مسدساً ضخماً من طراز سميث وويسون له ماسورة قصيرة :

- وهم يرحبون بالضيوف ومرحون .. ولكنهم متكتمون فى بعض
الأحيان ، ومن الأوفى أن تصادقهم بدلاً من أن تعاديهم .. ولكن ماذا
تريد أن تفعل بهذه اللعبة بحق الشيطان يا صاحبى العزيز ؟ إن

على ركبتيك يالوبين ، أمام البراعة والفضيلة .. الحسنة
الوحش .
وأخذ يد الفتاة ورفعها إلى شفتيه ثم أطفأ مصباحه وارتد في
هدوء وخرج من الغرفة .

لو ألتقى بالوحش الذى سمح لنفسه ...

لانه لم يكن هناك أى مجال للشك ، فهناك رجل آخر فى القصر ..
رجل يهوى جمع التحف هو أيضاً .. ولكن كيف تمكن من خداع يقظة
برونو ؟ أه ، البئر طبعاً ! إن فى مقدور أى شخص أن يلقى أثناء
مرورة مخدرا فى الدلو .. ولاريب أن اللص فى المعرض الآن يختار
وينتقى فى هدوء .

اجتاز راؤول الطريقة التى تمتد حتى البسطة وتؤدي إلى الجناح
الايمن وكان الضوء الباهت الذى يتسرب من خلال النوافذ المرتفعة
يكفى لكى يوجه خطواته .. من أين دخل الرجل الغريب ؟ لاريب عن
طريق قبو أو طريق المطبخ وسلم آخر مادام جرس الإنذار لم يرسل
صليبه ، ولاريب أنه يعرف كل مسالك القصر .

وكان المعرض يقع بعد الطريقة مباشرة ، وأضاء راؤول الباب ذا
المصراعين وأدار الاكرة فجأة ، وأصدر الباب صريرا بغيضاً .. وأدار
نور المصباح فى أرجاء المعرض ، لكن لم يكن هناك أحد .

طاف راؤول بالقاعة الفسيحة ، ونسى على الفور قلقه واضطرابه ،
فقد كان المعرض حافلا بالروائع والنفائس .. وتمتم يقول :

- ولكن لابد من ساعات لتقييم كل هذا .. فهذه اللوحة لمانتينا ،
وهذه للارجيلير .. ولكن هذه اللوحة التى تمثل القديس جان بابتيست
والمهورة .. بتوقيع دى فنسى تبدو لى مزيفة .. وإنى لأفهم الآن
شكوك وزارة الفنون .

مفتونا ، فإن شعاع المصباح المائل إلى الزرقة أضاء وجهها جميلاً يجثم
فى جوف عش من الشعر الأشقر .. ما عمرها ؟ سبعة عشر عاماً ،
استناداً إلى قول برونو ؟ ولكن من يراها لايعطيها أكثر من خمسة
عشر عاماً على الأكثر .. الأهداب السمراء مسدلة بطريقة ساحرة
وخيل لراوول أنها سترتفع فجأة وأن عينين واسعتين بنفسجيتين
ستتفتحان تنظران إليه فى مودة ورفق .. ذراع من ذراعيها
البيضاوين أفلت وتدلى بطول الغطاء .. وبقي راوول منحنياً فوق
الفرش ، مسحوراً ومفتوناً .. وتمتم يقول أخيراً :

- ماذا دهك يالوبين .. أفى مثل سنك هذا ؟

كان يحاول أن يمزح .. بيد أن صوته كان يرتجف لفرط ما يعانیه
من إنفعال .. هل يمكن بعد كل تلك المغامرات وكل تلك اللقاءات ؟

- ما هذا يالوبين ؟

أنت ترى تماماً أنها فتاة صغيرة .

وانبعث من الوسادة عطر جميل .. لم يتأمل راوول أبداً مثل هذا
الجمال ومثل هذا الشباب الساحر الغض .. ومد يده فى حياء وهو
يقول :

- أيتها الفتاة المجهولة .. أنت جميلة .. لكم أود فى هذه اللحظة أن
أطوف بأحلامك .

وأردف يقول على الفور :

- إنك لخبيث ياماركيز .. أيمكنك أن تتصابى بشعرك الذى وخطه
المشيب والغضون التى بدأت تظهر فى ركنى عينيك ؟

واستولى عليه الاضطراب ولم يستطع أن يحول بصره عن الوجه
النضر .. ولم يتمالك نفسه أخيراً فأنحنى قائلاً :

خلفه .. ومرت سحابة لفت الفناء بظلمة مواتية ، فاندفع يجرى .

أما الرجال الثلاثة فبدلاً من أن يخرجوا إلى الطريق راحوا يسيرون بمحاذاة الباب الحديدي، وتجاوزوا الجناح الأيمن ودلفوا إلى البستان ، وغابوا عن بصر راوول بعد ذلك مباشرة ، ولكن كان من السهل عليه الاهتداء إلى مكانهم من وقع خطواتهم .. وتجاوز زاوية القصر بدوره وتوجه نحو الأجراس والأشجار .. ورأى المجهولين الغامضين وهم يغادرون القصر من باب صغير .. واجتاز خلفهم ربما وتغلغل في دغل صغير يمتد حتى نهر السين .. ولم تكن هناك طرقات ممهدة في تلك الناحية .. لم يكن هناك غير النهر .

عسى ألا يهربوا في قارب .

ازدادت الأرض انحدارا ، وفجأة انتهى الدغل ، وبدأت بعدها بقعة منحدرية من المستحيل عبورها دون أن ينكشف أمره .. وفكر راوول : إنهم سيعبرون البحر .

وسمع صوت ارتطام مجداف بأرضية قارب ثم صرير سلسلة ، ورأى على سطح الماء البراق تموجات دوامة ، ولم يلبث القارب أن ابتعد عن الشاطئ . ورأى رجلاً يجذف بمحاذاة الشاطئ ، ضخم الجسم ، له رأس مربعة متداخلة بين كتفيه وآخر جالساً في المقدمة ، وكان قصيرا ومشوها ، أما الثالث فكان منحنيا في آخر القارب .

تنهد راوول في ارتياح ، فإن القارب لم يدخل عرض البحر وإنما كان يتقدم بطول الساحل . وما كانت رؤيته لتثير دهشة أحد في تلك الساعة فإن الصيادين الشرفاء يخرجون في وقت مبكر في شهر يونية ويمضون لأماكنهم المفضلة قبل الفجر .

وتقدم راوول في طريق ضيق يتعرج خلال صخور الشاطئ .. وكان القارب يختفي من وقت لآخر خلف باقة من الخضرة أو مرتفع من

وسلط ضوء مصباحه على منضدة صغيرة وانعكس الضوء على تحف ثمينة :

- أه .. هاهي حقة القربان المشهورة .. وصندوق المخلفات الذي يرجع عهده إلى القرن الخامس عشر .

وفاض به احساسه بعظمته ، فقد دبر كل شيء وهو في مسكنه بباريس ، دون أن يرى شيئاً ، وإنما مكتفياً بمعاينة الكتالوجات والبطاقات ، بيد أنه أصبح الآن سيد هذه النفائس .. مجرد حركة واحدة منه وتنقل إلى مصائر جديدة جدية بها .

وأجفل فجأة .. لا يمكن أن يكون هناك أي خطأ هذه المرة .. كانت صرخة البومة حقاً .. وأرهف أذنيه وسمع للمرة الثانية الصرخة في وضوح .. لاريب أن برونو ، وهو في مكمنه ، قد رأى الزائر الخفي .

ألصق راوول وجهه بأقرب نافذة ، وأجفل وهو يرى المنظر المذهل الذي يطالعه من خلال الشرائح الخشبية لمصراعي النافذة .. رأى ثلاثة أشباح تجتاز الفناء في طريقها إلى الباب الحديدي ، وكان يبدو أنهم قادمون من الجناح الأيسر للقصر ويتحركون بسرعة .. وكان أحدهم يمشى في المقدمة أما الآخران فكانا يحملان حملاً ثقيلاً له هيئة رجل ملفوف في غطاء .. وأحس راوول بالعرق يتصبب من كل كيانه .. اللعنة .. اللعنة ! بينما كان واقفا يتأمل مجموعة النفائس كان الآخرون يختطفون ..

وأسرع إلى الطرقة ودفع باب غرفة هوبير فيرانج .. كان سيد القصر يرقد في هدوء .. الفتاة انن ؟ كلا .. كانت راقدة هي الأخرى وذراعها لا يزال على حالته .. من اذن ؟ خادم ؟

وهبط السلم مسرعاً واجتاز الردهة .. كان الرجال الثلاثة يتسللون محتمين بظل الجدار بجوار الباب الحديدي .. وأغلق راوول الباب

بالماء .. إذن ؟ لا يمكن أن يكون الرجال الثلاثة وضحيتهم إلا تحت الأشجار الثلاثة ، ومع ذلك فقد كان راوول واثقاً أن أغصانها لا تخفى أحداً .. وسار في ببطء بجوار الهضبة مترددا لا يدري ماذا يفعل ، فإنه إذا حاول أن يهبط حتى النهر فإنه يغامر بأن يعرض نفسه لهلاك أكيد ، ثم ، ما الجدوى في أن يتأمل عن كثب هذا القارب الفارغ .

وجلس ليبعد بأكثر من خمسين مترا ، وكان يرى في وضوح انعكاس سلسلته وبركة صغيرة من الماء بين الألواح .

وتجمد دمه فجأة فقد ارتفع أنين بجواره .. وصرخة مكتومة .. فأدار رأسه ولكنه لم ير أحداً .. كانت الهضبة خاوية ، على بعد امتداد البصر .. لعلها الرياح ؟ كلا .. لم تكن هناك نسمة واحدة .

ماذا دهاك ياماركيز ؟ إنك أصبحت تتخيل أشياء .

ولكن الصرخة عادت من جديد ، وكانت هذه المرة طويلة تدل على أن صاحبها يتألم كل الألم ، ووثب راوول على قدميه .. هل هذا ممكن ؟ لم يكن بالهضبة أحد على امتداد البصر .. لم تصدر الصرخة من الأشجار ، بل كانت أقرب بكثير .. بدا أنها تصدر من جوف الأرض .. صرخة رجل يتعذب تبعثها متممة أصوات .. وكان الانطباع قويا بحيث أن راوول دار حول نفسه مرة واحدة ، وأحس بخوف مستتر لم يستطع التغلب عليه .. وثارت أعصابه .. كان قد واجه خلال حياته الحافلة بالمغامرات أخطارا جمة ، ولكن لعله لم يجد نفسه أبدا في مثل هذا الموقف الشديد الغرابة .

وسمع صاحب الصوت يقول متضرعا :

- كفى .. كفى .. النجدة . كان الصوت يبدو بعيدا ، يأتي من مسافة بعيدة عن الواقع ، كصوت في آخر خط تليفوني ويبدو قريبا في

الأرض ، ولكنه كان لا يلبث أن يظهر من جديد ، كتلة داكنة تظهر في وضوح فوق حصيرة النهر الفضية وكان الطريق يزداد ارتفاعا ما بين لحظة وأخرى ، وكانت المسافة تزداد بين راوول والقارب .. وقال :

- لعلني أخطأت .. ربما كان يجب أن أتدخل دون انتظار .

وهناك ، كان القارب يقترب من ثلاث شجرات من أشجار الصفصاف الضخمة ، اختفى خلفها شيئا فشيئا .. وجرى راوول ثم وقف .

- آه . ولكن ماذا يفعلون ؟

ذلك أن القارب اختفى نهائياً ولم يظهر .

وتقدم بضع خطوات وهو بادي الحيرة ثم توقف من جديد .. وفجأة كتم سببه ، فقد برز القارب من خلف الأشجار في ببطء .. ولكنه كان شاغرا .. شاغرا تماما ، ولم يلبث أن توقف وقد شده حبل المرساة . والرجال ؟ أين ذهبوا ؟ لم يكن في مقدورهم الهبوط لأن الشاطئ كان عبارة عن صخور ملساء ، وجذور الأشجار نفسها تكمن في قلب التل الذي يهيمن على السنين من عل .. وترك راوول الدرب وتقدم حتى الهضبة التي تنحدر فيها الأرض حتى النهر .. ومن مكانه تبين في وضوح من خلال الأغصان بريق الماء الشاحب ، وتمتم يقول :

- ما معنى هذا ؟ أنه لأشبهه بعمل من أعمال الشيطان !

وحتى على افتراض إن أصحابنا الثلاثة الغامضين افلحوا في الهبوط إلى الأرض فأين ذهبوا بعد ذلك ؟ إن الجرف المنحدر يمتد نحو مائة متر ، وهو عار وأملس كاليد يكاد يلمع تحت نور القمر ولكن ماذا حدث للجسد ؟

لو أنهم القوه في النهر فما كان راوول إلا لسمع صوت ارتطامه

التصق راوول بالصخور ولم يعد يفقد كلمة واحدة من الاستجابات الرهيب الذي يدور تحته . وراحت الأحداث تتكون في ذهنه في منطق ودقة اثاراً جزعه وملاؤه رعباً : أهل البيت مخدرون .. والعدو الخفي ينجز خطة موضوعة بكل عناية فاختطف الخادم .. وبلغ القارب مدخل سرداب مهجور .. الآن العذاب ، وغدا جثة تتعفن وتتكفل بها الجرذان .

وتأوه الصوت من جديد :

- كفى .. كفى .. سأتكلم .

أدخل راوول رأسه في الفتحة والتصق بالتل ، وراح يتنفس هواء يشوبه العفن ، ولكن كانت هناك رائحة أخرى لم يلبث أن عرفها وهو يقشعر .. رائحة لحم يحترق .

- عجل وإلا انتهى أمرك .

- جرعة من الماء .

- إننى احذرك .. سوف نبدأ من جديد .. هيا يا جريجوار .

ومن جديد الصرخة المدوية المرعبة . وراح راوول يسب ويلعن وانغرزت أظافره في كفيه . وساد صمت ، ثم عاد الصوت الخشن يقول :

- أظن أنه أغمى عليه .. جريجوار .. الماء .

ارتد راوول إلى الخلف . لم يفت الأوان بعد ، فبقليل من الحظ واستناداً إلى عنصر المفاجأة .. رجل ضد ثلاثة .. كان ذلك يكاد يكون أمراً يسيراً .. وراح يثب فوق المنحدر ، ولم يكن دافعه إلى ذلك انتزاع السجن من عذابه فحسب ولكنه أدرك أن قصر يونرفيل لاشك يضم سرا غير تحفه ونفائسه .. سراً عظيماً .. وقد صمم أن يعرف

نفس الوقت كان يتولد في الهواء بطريقة غامضة .. وصاح الصوت :
- النجدة .. كفى .. كفى .

امتقع لون راوول وضم قبضته ودار حول نفسه والعرق يتصبب من جبينه وارتفعت من جوف الأرض حشرة رهيبة أعقبها على الفور صوت خشن قاس يقول :

- تكلم .. عجل وإلا ..

وعندئذ ومض الضوء في ذهن راوول وقال :

- آه .. كيف لم أفطن إلى هذا ؟

وانحنى فوق المنحدر وراح يمشى على أربع تقريباً ، وبدأ يهبط في ببطء ؟

- هل حزمت أمرك ؟ ألا تريد أن تتكلم ؟

- كلا .

- هيا يا جريجوار .

صرخة حيوان خرجت من مجموعة من الصخور المنخفضة ، وقال راوول :

- حسن .. ها نحن قد وصلنا .

وأبعد بعض الأشواك بقدمه وجلس القرفصاء .. كانت هناك فتحة أضاءها بمصباحه الكهربى .. طبعاً . آه .. هذا هو الأمر انن .. بئر التهوية .. لا ريب أن هناك محجراً .. صاح الصوت متوسلاً :

- النجدة .

- يمكنك أن تصرخ كما تشاء .. كلا لا تريد أن تكلم ؟ .. أستمر

يا جريجوار .

وتقدم راوول فى ببطء أكثر وضمن تفريضة ثانية .. ولم يلبث أن انضم للطريق الأيسر بعد دورة إلى الطريق الذى سبق أن اتخذه.. واخترقت القضببان قاعة كبيرة دائرية تشع منها انعكاسات صادرة من كومة من الحجر تنير أرجاعها فى غموض .. اختفى الجلادون ، ولاريب أنهم غادروا السرداب عبر الطريق الأيسر، ومروا براوول على غير علم منهم ، ولكنهم لم يحملوا ضحيتهم معهم .. كان الرجل راقدا بجوار النار وقدماه العاريتان نحو الجمر .. وسلط راوول نور مصباحه عليه كان رجلاً مسناً ، أبيض اللحية ، خشناً ، قوى الجسم ، له وجه نبيل وكان لايزال يتقلص من جراء التعذيب .. ورفع راوول وأبعده عن النار .

- أنت لم تمت يا صاحبي ؟ لن تموت الآن بعد أن لقيت من أجلك كل هذه المشقة .. سوف تعود إلى الحياة برفق وتتحدث معي .
والقى وهو يتكلم بأشعة مصباحه على قدمي الرجل المسكين ، وأرسمت على وجهه تكشيرة ولمس باصبعه اللحم المتورم وقال :
- أه ، ليس الأمر بالسوء كما ظننت .

وتلوى الرجل وسرت قشعريرة فى بدنه وتأوه قائلاً :

- الرحمة .. إننى قلت كل شئ .

وراح ينطق بكلمات غير مفهومة ، واضطر راوول أن يجثوا بجواره وأن يدنى أذنه من الشفتين الشاحبتين وقال :

- تكلم ماذا تقول ؟ القديس جان ؟ ماذا فعل هذا القديس ؟ إيه القديس جان يخلف يعقوب ؟ حسن .. هذا واضح تماماً .. وبعد ؟ دراتنيان ؟ نعم ، اننى أسمع جيداً .. دارتنيان .. هدئى من روعك يا جدى .. دارتنيان يفوز بالمجد والثروة بحد السيف .. أهذا ماتريد أن تقول ؟ انتظر .. ساكرر .. القديس جان يخلف يعقوب .. دارتنيان

هذا السر .. وراح يجرى الآن فوق أرض صخرية تشرف على نهر السين ويكرر فى صوت خافت كما لو أن لارادته ما يكفى من القوة لكى يشق طريقه فى جوف الأرض حتى يصل إلى مخ المحتضر :

- قاوم يا صديقى .. قاوم خمس دقائق فحسب وسوف أنقذك .. تجلد فأنا لوبين .. قادم إليك .

كانت الأشجار الثلاثة الآن تحت قدميه تقريباً فتعلق بحافة الجرف وأحس بساقيه تلمسان أعلى الأغصان وتحسيس بأصابعه حافة الجرف وأحس بساقيه تلمسان أعلى الأغصان وفتح أصابعه وهوى خلال الأوراق ثم ارتفع على قدميه وتعلق لحظة وجيزة أبصر فيها جرفاً ضيقاً موصلاً وسلسلة القارب ، وعاد فهوى من جديد فى رفق فوق أرض لينة .. ولم يشعر بأية دهشة وهو يرى فتحة سرداب يمتد داخل الصخور .. وعلى ضوء مصباحه رأى قضباناً صديئة لعربة صغيرة من تلك العربات التى تستخدم فى المناجم ولاريب أن الزوارق كانت ترسو فى هذه الناحية فيما سبق وتوسق حمولتها مباشرة .. ولم يكن أمامه الآن إلا أن يستكشف المكان .

كانت أول مبادئ الحرص تنصحه بالألا يستخدم مصباحه الكهربى فراح يتعثر فوق القضببان ، تلح عليه نفس الفكرة وتؤرقه "عساه ألا يتكلم" . وتوقف لكى يصغى .. لاشئ غير صمت بغيض لايطاق .. وخطر له عندئذ أن الأصوات فى جوف الأرض تنتشر بطريقة غريبة .. ولعله لايزال بعيداً عن الأشقياء الثلاثة .. مهما يكن فقد قضى الأمر وسيصل بعد فوات الأوان .. وتعثر فى عمود معدنى وأوشك أن يقع فأضاء مصباحه لمجرد لحظة خافتة يا للكارثة .. يا للكارثة ! كان أمامه طريق متفرع ، وكان من المستحيل أن يعرف .. وانعطف إلى اليمين ، وعلى الفور ، وفى جوف الليل ظهر ضوء صغير أحمر أخذ يكبر ..

- حسناً يا جدى .. سوف تنصرف الآن .. سأحملك معى إلى عيادتى .. وأعدك أنك سوف تعدو كالأرنب قبل خمسة عشر يوماً .
ورفع الشيخ فوق ظهره وتمتم يقول : أنت ثقيل يا جدى .. ثقيل جداً .

وعاد من حيث أتى وهو يريزح تحت الحمل الثقيل الذى يحمله .. ووقف لحظة عند مدخل السرداب ليسترد أنفاسه .. لم يكن القارب فى موضعه تحت الأشجار ولاريب أن الرجال الثلاثة حسبوا أن ضحيتهم ماتت .. وزمجر راوول وجمع قواه وعاد وحمل حمله من جديد .

- مازال حياً .. إنه مبنى بالجير والرمل .. ياله من جيل .
وأخذ يمشى من جديد ، وبدأ النهار يطلع . ولكن الريف كان لا يزال مقفراً ولاريب أن برونو فوق البرج يفحص بمنظاره كل ثنايا الطريق ، وسوف يسارع إلى النجدة بمجرد أن يراهما .. وبدأت ساقا راوول تترنحان لفرط التعب وفكر :

- إننى اخطئ إذ ارهق نفسى هكذا ، فإننى لم أعد فى العشرين كما كنت .

وكانت المسافة بين الحجر والسيارة أكثر من كيلو مترين ، وقطع راوول ساعة فى عبورها ، ولحسن الحظ كان برونو .. برونو الأمين المخلص هناك .. وترك راوول يتهاوى فوق العشب فى حين بادره برونو يقول :

- لقد استبدبى القلق ورحت اتساعاً ..

- حسناً .. اهتم به .. هل تعرفه ؟

قال برونو مضطرباً :

- إنه الشيخ الذى كان فى القصر .. أعنى الحارس .

يفوز بالمجد والثروة بحد السيف .. هذا له معناه طبعاً .. هل أنت متأكد أنه ليس هناك أى شئ آخر ؟ شئ آخر يلقى قليلاً من الضوء رغم كل شئ .

وأمسك الشيخ من كتفيه وعيناه تلمعان بالانفعال وهزه فى رفق وقال :

- جهد آخر يا جدى .. أفرغ ما فى جعبتك فتنجو من الموت ورفع الشيخ نفسه فى جهد أخير وتوترت شفقاته وصاح راوول ؟ وماذا ؟ الدم .. هل قلت الدم ؟

خفض الشيخ حاجبيه وعاد فهوى على الأرض ، وتشبث راوول به وقد امتقع وجهه لفرط ما يشعر به من غضب مكبوت ، وقال :

- تكلم .. عجل وتكلم .. ولتمت بعد ذلك .. دم من ؟ هيا يا صاحبى ، تشبث بالحياة .. ماهذا الدم الذى تتكلم عنه ؟

ولكن الشيخ كف عن الحركة .. لن يبوح بالكلمة .. تلك الكلمة التى لاريب أنها مفتاح كل الباقي .. فقد رشده ووجهه الناصع البياض كالشمع أصبح بشعا وبغيضا .. وزمجر راوول :

- يا للمسكين .. ومع ذلك فقد بدأ يتكلم .. لو أنه لم يفقد الرشد لاعترف بكل شئ فى ثلاث ثوان .

وجفف جبين الرجل المجهول وكان يتفصد بالعرق .

ووقف بجوار الحجر الذى يتصاعد منه الدخان فى آخر السرداب المظلم على أتم راحته كما لو كان فى النادى الذى يختلف إليه عادة وراح يفحص الموقف بتلك الجرأة العجيبة وبتلك الدقة المدهشة التى تتيح له السيطرة على أشد المواقف صعوبة .. وابتسم فجأة كالطفل وقال :

صفحة من التاريخ

رغم علاقتي الطيبة الودية مع أرسين لوبين والثقة الكبيرة التي أولاني بها في شتى المناسبات، فلاتزال في حياته بعض الأسرار التي لم أفصح بعد في أن أجلو غوامضها، وعلى الخصوص قدرته العجيبة ليس في التنكر فحسب وإنما في تقمص أية شخصية إلى حد أنه لا يمكن أن يخطر لأي أحد أنه هو لوبين نفسه .. فهل تراه عملاً، كما يزعم، مع فريجولي أم أنه تلقى دروسه، كما يؤكد، في الكونسرفاتوار، وهل صحيح أن ميليس لقنه أسرار السحرة والحواة ؟ عندما ألقى على مغامرنا القومي أسئلة محددة في هذا الصدد يكتفي بأن يبتسم أو بأن يرد كما فعل ذات يوم مع القاضي فورميري إذ قال :

إنني أشخاص كثيرون ياسيدي القاضي ولست على علم بسيرة أشخاص العديدين .

ولكن الشيء المؤكد أن ارنستين، خادمة الأستاذ فرينيزو، موثق العقود بمدينة هونفلير، أدخلت في ذلك الصباح في غرفة الصالون رجلاً قصير القامة يرتدي ثياباً بالية، حلو الشمائل، طلب منها أن تنبئ سيدها بأن الكونت هونوريه دي بريسك يريد أن يقابله ، وقرصها في خدها في رفق بحيث كان من المستحيل أن تغضب .. وأحس الأستاذ فرينيزو بدوره من نحو الكونت دي بريسك ، حالما رآه ، بميل كبير، ميل تحول إلى ود أكبر عندما عرف أن زائره يشاركه حبه الشديد للتاريخ .

سبعين سنة .. لن ترفضى إسداء خدمة صغيرة لى ياعزيزتى فيكتور .. للمرة الأخيرة .

ودفع برنو إلى الردهة ثم تقدمه إلى غرفة صغيرة تؤدي إلى الحقول من الناحية الأخرى للبيت .

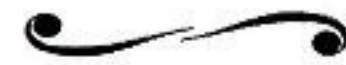
- قضبان بالنوافذ وقفل بالباب .. حسن .. لايدري المرء ماقد يحدث .. ضعه فوق الفراش .. ستبقى هنا يا برنو وستعنى به .. وستمضى فيكتور إلى البلدة لشراء الأدوية .. أنتما مسئولان عنه أمامى ، ولا كلمة واحدة لأي كائن كان وإلا انتزعت لسانكما .. هناك غرفة أخرى في الطابق الأول ، إذا كانت ذاكرتى لاتخوننى .. ستمضى فيكتور بك إليها ، فأنت بحاجة إلى النوم .

قالت فيكتور :

- ولكنك أنت مرهق أيضاً يا صغيرى .. إن سحتك تثير الخوف .. يجب أن تنام أنت أيضاً .

أمسك راوول مقعداً وجلس بجوار الباب وقال :

- أنا .. هل تمزحين ؟ ألاتفهمين ياعزيزتى ؟ سر يونرفيل !



العزم على إدخال تجديدات فى أرجاء القصر ؟

- نعم . إن رأى كرايك تماماً فى هذا الصدد ياسيدى الكونت ، فإن الجيل الجديد لا يهتم فى بعض الحالات بالحفاظ على الآثار ولا يحجم عن تدميرها .. وقد بدا جاك فيرانج بإدخال الكهرباء .. وهذا أمر طبيعى فيجب أن يساير الإنسان وقته .. ولكنه أراد هدم الجناح الأيمن وتوسيع فناء الشرف وإدخال الماء كما لو أن البئر لم يكن فيها الكفاية .. وأراد أيضاً استبدال الاسطبلات بجراج .. وفى هذه النقطة بالذات لم أكن لأوافق .

صاح هونوريه دى بريسك فى عنف :

- آه ، كلا . ولكن ألا يمكن أن أقوم بزيارة هذا السيد فيرانج ؟

- كلا للأسف .. فقد مات ، وبطريقة مأساوية .

وضغط الأستاذ فرينيزو على جرس فأقبلت ارنستين ، وقال المحامى : هل لك أن تشرفنى وتتذوق شراب التوت الذى أعده بنفسى ياسيدى الكونت ؟ إنه شراب ممتاز .. وسوف ترى ذلك بنفسك .. أحضرى لنا قدحين يا ارنستين ، إذا سمحت .

وأدنى مقعده من مقعد زائره واستطرد :

- لقي جاك فيرانج وزوجته حتفهما بعد شهرين تقريباً من إقامتهما فى القصر فى حادث سخيف .. كانا يقومان بنزهة بحرية على مقربة من هنا وغرق الزورق .. إن القصر يجلب النحس فإن صاحبيه السابقين ماتا هما الآخران بطريقة محزنة .. لقي الأول حتفه فى حادث صيد .. أطلق رجل مجهول لم يعرفه أحد حتى اليوم رصاصة أصابت منه مقتلاً ووقع الثانى من فوق الصخور .. وكل هذا يثير الحزن .

بدأ الكونت يقول بعد أن أخذ مجلسه فى أفضل مقاعد المكتب :
- علمت من ابن عم لى أن قصر يونرفيل معروض للبيع ولا أخفى عليك أنه يسعدنى أن أشتريه .

وضحك ضحكة قصيرة ظريفة كما لو أنه أول من يسخر من نزواته واستطرد :

- وليس ذلك لبنائه المدهش أو لمعرضه الرائع فحسب وإنما ، وأقول على الخصوص ، لأسباب عاطفية بحتة .. آه ، نعم .. إننى رجل محافظ وأعرف أن كثيراً من الذكريات ، وأغلبها ذكريات مجيدة ، ترتبط باسم يونرفيل .

أسرع موثق العقود يقول وقد أسعده أن يجد مستمعا يستطيع أمامه أن يرخى العنان لهوسه البرئ دون أن يتعرض لأن يقاطعه ويقول فى فتور "وبهذه المناسبة أرجوك أن .."

- وهى ذكريات بعضها غير بعيد جداً .. هل تعلم أن ملكنا المسكين لويس فيليب أقام بضعة أيام فى القصر عند هربه إلى انجلترا فى ذلك الشتاء المحزن من عام ١٨٤٨ ؟

قال الكونت : أظن أننى قرأت فى الواقع شيئاً فى هذا الصدد ، ولكن هناك قصصاً متناقضة تدور حول هذا الحادث المؤسف .. والحق يا أستاذ أنها تؤجج رغبتى فى الحصول ..

- ولكن معلوماتك خاطئة ، فإن قصر يونرفيل ليس معروضاً للبيع .
- حقاً ؟ هذا خبر سيئ فى الواقع .. ويؤسفنى سماعه بالتأكيد .

- وأنا حزين جداً من أجلك ، فأنا الذى قمت بإجراءات البيع منذ ثلاث سنوات وقد كان عميلى مهندساً يدعى جاك فيرانج .. رجل شهيم وذكى جداً ونشيط جداً .. بل أقول أنه كان جم النشاط .. ألم يعقد

قال الكونت ولم يكن يفكر فى إخفاء فضوله الشديد :

.. هذه نقاط لم أكن أعرفها .

قال موثق العقود فى ارتياح :

.. وأنت لست وحدك .. بعد ليلة طويلة من القلق وصل الملك فيليب إلى قصر يونرفيل حيث انضمت الملكة إليه بعد بضع ساعات .. وكان المكان مثاليا للمراقبة ، فمن ناحية ، الريف حيث يمكن للجيش أن يظهر فى أية لحظة ، ومن الناحية الأخرى ، البحر ، وهو الوسيلة الوحيدة الباقية للنجاة .. والكونت يونرفيل ، وهو الشخص الوحيد الباقي من آل يونرفيل ، كان رجلاً متقدماً فى العمر ولكن رئيس خدمه ويدعى ايفاريسست كان شاباً ، وكان شديد الإخلاص مثله للملكية .. وكانت الحكومة المؤقتة قد أصدرت أوامر مشددة لمراقبة الساحل .. وكان ايفاريسست هو الذى فكر فى أن يكترى سفينة صغيرة فى تروفيل ، وقد تقاضى صاحب السفينة ، ويدعى هولو ، ثلاثة آلاف فرنك لى ينقل الملك إلى الساحل الانجليزى .. وكان ايفاريسست هو أيضاً الذى مضى بالملك فى إحدى العربات إلى تروفيل .

تمتم الكونت ، وكان قد انحنى إلى الأمام رغماً عنه وراح يلتهم موثق العقود بعينيه :

.. هذا أمر مثير .

استطرد الأستاذ فرينيزو :

.. والبقية أكثر إثارة ، فها هو الملك فى تروفيل ، وكل شئ جاهز ، ومع ذلك فلم يرحل ، بل على العكس ، عاد فى ليلة ٢ مارس إلى قصر يونرفيل .. فلماذا ؟ زعم البعض أن البحر كان هائجاً وزعم الآخرون أن صاحب السفينة خشى أن يبلغ عنه أحد وفر فى آخر لحظة ، وهذه الأسباب تبدو لى غير مقنعة ، فهناك شئ غامض لاتفسير له فى

.. لنعد إلى آل فيرنج .

.. حسناً ، إنهما تركا فتاة قاصرة تدعى لوسيل .

قال الكونت : واذن ؟

.. انتظر .. كان لجاك فيرانج أخوان ، هوبير ، الأخ الأكبر وقد أصبح القيم على اليتيمة ، وهو الذى يسكن القصر الآن .
ورفع المحامى قدحه وراحا يشربان فى ببطء وهما يتنوقان الشراب وعاد الكونت يقول :

هذا أمر مؤسف ، ولكننى مضطر الآن إلى العدول عن مشروعى .. لك أن تصدقنى على كل حال إننى لست أسفأ على هذا الإجراء الذى قمت به لأننى أظن أنك لن ترفض أن تطلعنى طبعاً على الظروف التى لجا فيها الملك إلى ..

قال الأستاذ فرينيزو :

.. طبعاً ، خصوصاً وأنها نقطة تاريخية أهتم بها كثيراً ، ولن أعيد إلى ذاكرتك ياسيدى الكونت أسباب ثورة سنة ١٨٤٨ .

تتهد هونوريه دى بريساك وقال :

.. لاداعى لذلك طبعاً .

وأردف يقول فى تفكير :

.. لقد حدثنى المرحوم أبى كثيراً عن الثورة وعن تنازل الملك عن الحكم ، وعن هربه هو وزوجته إلى تريانون ثم إلى درو ...

.. وهل قال لك المرحوم أبوك أن الملك نزع شعره المستعار وارتدى سترة عادية من الصوف وأخفى عينيه خلف نظارة سميكة حتى لايعرفه أحد ، وأنه على الرغم من تنكره هذا عرفه أحد الحراس الوطنيين فى مدينة أفرو وكاد أن يبلغ عنه ؟

وبدا كأن الكونت بريساك قد صغر فجأة ، وكان جالساً في مقعده مستقيماً جداً وينقر بأصابعه في عصبية على مستوى مقعده وهو فريسة انفعال غريب .. وتمتم يقول :

.. رجل عاصر الثورة والإمبراطورية والملكية .. لا ريب أن هذه المذكرات ذات فائدة كبرى .

.. كلا .. إذا أردت الحقيقة .. فإن أسلوبها قبل كل شيء ممل جداً ، وهي عبارة عن كراسات لا تقل عن ستمائة صفحة ، مكتوبة بخط دقيق يتعذر قراءته في أغلب الأحيان ، ولكي تفرغ من قراءتها فلا بد لك من صبر لا أملك أنا منه شيئاً .. لا بد أن يكون لديك متسع من الوقت لذلك ، فإنها تضم أشياء لا يمكن هضمها وتفصيل تافهة .. ثم إن كل ما فيها عرضة للطعن ، فإن الكونت كان رجلاً متعصباً ، ومن ناحية أخرى فإن الأحداث التي ذكرتها لك لا ريب أخلت بعقله إلى حد ما لأن الجزء الأخير من المذكرات يضم فقرات مبهمه تماماً .

سأله الكونت في اهتمام :

.. هل يمكن أن تضرب لي مثلاً ؟

.. لا أستطيع أن أتذكر .. ولكن لاشئ يمنعك من أن تطالع هذه المذكرات بنفسك ، لأن جاك فيرانج أهداها إلى شركة نورمانديا للتاريخ والآثار .

.. وهل تظن أنه قد يوجد في القصر أوراق أخرى أو مستندات أخرى نتكلم عن الحقبة التي تكلمنا عنها الآن .

.. كلا .. لا أظن ذلك .. ولكن ليكن معلوماً أنني لم أفحص كل الكتب الموجودة في المكتبة .. لعلها تضم خمسة عشر أو عشرين ألف كتاب ولم تدرج في فهرس أبداً .. كان جاك فيرانج ينوي أن يبويبها وأن يعد لها فهرساً وكل ما أستطيع أن أؤكدك لك هو أن المذكرات مازالت ،

تصرف الملك العجوز المطارد الذي لم يكن هناك من هم يشغله غير نجاته هو شخصياً .. وأنت تعرف ، لأن هذا الأمر أصبح معروفاً من الجميع ، أن لويس فيليب أبحر أخيراً في تلك الليلة ، وأعنى بها ليلة ٢ مارس إلى هونفلير على السفينة "ليكورييه" .. التي وضعها قنصل إنجلترا في فرنسا تحت تصرفه في ميناء الهافر .. ومع ذلك فقد كان البحر هائجاً ، ومن ناحية أخرى ، كان المدعى العام في بون أوريمير وجنوده يراقبون الموانئ والطرق مراقبة دقيقة ، فلماذا أصر الملك ، وكان موجوداً بطريقة ما في تروفيل ، على العودة فجأة متحدياً بهذه الصورة خطراً جسيماً لم يكن هناك أي مبرر له .. من رأيي أن قرار الهروب ليس له غير تفسير واحد وهي ضرورة ماسة ومفاجئة لكي يتواجد في القصر ، أما لكي يأخذون شيئاً كان قد أودعه في عهدة أصدقائه المخلصين وما على العكس لأنه أراد أن يكلفهم بمهمة سرية تردد في أن يعهد بها إليهم حتى آخر لحظة .

وأردف الأستاذ فرينيزو ويقول :

.. ولكن ليس في مقدوري أنا أن أجلو هذا السر التاريخي الصغير .

قال الكونت :

.. ولكنك توصلت إلى نتائج رائعة .. اسمح لي أن أهنتك على هذا التبحر .

احتج المحامي في تواضع : أوه .. لاداعي للمبالغة في مقدرتي

وقدراتي فأننى وجدت أغلب هذه المعلومات في المذكرات التي تركها الكونت يونرفيل الشهم .. إن الرجل المسكين لم يعيش كثيراً بعد مليكه فمات في سنة ١٨٥١ ، ويمكنك أن ترى قبره في مقبرة يونرفيل بجوار قبور أجداده .

الذرة بأنه يجب أن يوجه أبحاثه إلى هذه الناحية .. ثم أنه لم يكن يملك في تلك اللحظة أية تفاصيل أخرى من شأنها أن توجهه إلى طريق آخر ، وكان لابد له لكي يبدأ أبحاثه من الحصول بأية طريقة على المذكرات المشهورة التي قرأها الموثق بتلك العجالة ، وراح يغلى من الالهة .. ولكنه كان يعلم جيداً أنه لا يجب أن يتعجل أبداً في سبيل الحصول على ما يريد ، ولهذا جلس في هدوء أمام مكتبه وأخذ كل وقت له لكي يشعل سيجارا ثم ضغط على زر مستتر في درج بالمكتب الفتح على أثره درج صغير خفى أخرج منه أضبارة ضخمة تحتوي على نماذج لخطوط جميع المشهورين .. كان في هذه الاضبارة آلاف منها، ابتداء من خط ليلي أمور ، الممثلة المشهورة إلى خط فالنجلاني ، الرئيس السابق للوزارة وعضو مجلس النواب ، مرورا بخطوط المفتش العام جانيمار وبرجسون والنائب دوبريك وقداسة البابا بول العاشر ، وطالما امتدح الناس طريقة لوبين العجيبة في التصرف ، غير أن أحسن انتصاراته وأكثرها غرابة إنما يدين بها إلى طريقته التي لاخطيب .. كان لوبين يعرف كيف يعمل قبل أي شيء آخر .

أخرج بطاقة باسم جابرييل تبارو ، عضو المجمع ، وفحصها لحظة في تركيز عميق .. وبنظرة واحدة عرف أدق الخصائص المميزة لخط الرجل .. الحروف المتباعدة بعضها عن بعض والأخرى المتشابكة ، ثم أخذ ورقة بيضاء وراح يتمرن بضع دقائق في تقليد الخط الرفيع الذي يدل على عصبية صاحبه ، ثم فتح دليل التليفون ويحث عن عنوان شركة نورمانديا للتاريخ والآثار ثم بدأ يكتب مرة واحدة وفي سهولة كثير جزع أي خبير في الخطوط .

إلى السيد جاستون سيروس .

سكرتير شركة نورمانديا ...

رغم التحفظات التي تقال عنها ، المصدر الوحيد الموثوق به فيما يتعلق بأحداث فبراير ومارس سنة ١٨٤٨ .

وكان الكونت قد استعاد هيئته التافهة السابقة فنهض وهو يقول :
- سوف أتحسر على قصر يونرافيل ماحييت .. ولكنني سأحتفظ بأحسن ذكرى عن زيارتي لهونفلير .

وشيعه المحامي حتى باب الشارع .. وعلى العتبة تبادل بعض المجاملات مرة أخرى ثم انصرف الكونت وهو محنى الظهر قليلاً ويكاد يجر قدميه ، ولكنه ما أن انعطف إلى الشارع الجنبى حتى نصب قامته وأسرع في خطاه .. وكان في انتظاره سيارة بجوار الطوار فاستقلها وهو يتنهد قائلاً :

- عجوز أحرق .. ولكن شرابه لذيذ وممتاز .. لو أستطيع على الأقل أن أعرف دم من ..

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب في ذلك اليوم عندما هبط راوول دابنيك من سيارته أمام مسكنه ببوليفار بيرير، وكان قد تخلص أثناء الطريق من تنكره في هيئة الكونت دي بريساك واستعاد هيئته كشاب رياضى أنيق .. لم يكن قد كف عن التفكير في اعترافات الأستاذ فرينيزو، وأحس بقلق شديد .. لقد كانت هذه الزيارة لمكتب موثق العقود قمة في العبقرية ، وكان ملهما إذ امتدح شغف الرجل العجوز بالتاريخ .

لم يكن هناك طبعاً ما يثبت أن هناك علاقة بين حادث الأمس الخفى وبين الأحداث التاريخية التي كان القصر مسرحاً لها قبل ذلك بستة وستين عاماً، ولم يكن في الكلمات الغامضة التي نطق بها الشيخ العجوز الذي عذبوه شيئاً يبدو أنه يمت إلى إقامة الملك لويس فيليب الوجيزة في قصر يونرافيل ، ومع ذلك فإن غريزة لوبين العجيبة

وما كاد يدفع الباب حتى انفتح ، ودخل ورأى غرفة المكتب على يمين الردهة ، وتقدم بضع خطوات وألقى نفسه فى غرفة واسعة بهدرانها رفوف حتى السقف مملوءة بالكتب .. وفى وسط الغرفة تمتد المنضدة كبيرة مكسوة بسجادة طويلة تتدلى حتى الأرض ، وفوقها سناديق بطاقات وسجلات .. وقال :

- المكان متواضع .. من المؤكد أن الثقافة لا تغنى أصحابها .

وصعد فوق سلم موضوع بالذات أمام القسم الذى يحمل حرف الياء .. وما كاد يلقى نظرة حتى رأى الفراغ .. كانت مذكرات الكونت بونرفيل غير موجودة .

لم يتمالك راوول من أن يكتم صيحة غضب .. ماذا ؟ هل جرؤ أحد؟ ومع ذلك فإن موثق العقود أكد أن المذكرات لاتضم شيئاً ذا هائدة تذكر .. لو أن أمين المكتبة لم يقع اختياره على هذه اللحظة بالذات لكى يتغيب .. وهبط راوول من السلم وأجفل بشدة ، ثم اقترب من المنضدة فى ببطء ورفع طرف السجادة .. ظهرت أمامه قدمان ينتعلان خفا .. لم يذهب أمين المكتبة بعيداً .

لم يضيع راوول لحظة واحدة ، فإن بعضهم قد يأتى فى أية لحظة فجئاً وأزاح السجادة .. كان الرجل تحت المنضدة ، تماماً كما تخيله .. وكل ما هناك أن قلنسوته وقعت بجواره ، وكان قميصه ملوثاً بالدم .. كانت الرصاصة قد أحدثت ثقباً رفيعاً عند مستوى القلب .. وكانت الجهة باردة .

أعاد راوول السجادة .. لم يكن هناك أى شك فى أن القاتل قتل سيروول لكى يسرق المذكرات .. كان ذلك واضحاً وضوح الشمس .. وكان سجل الاستعارات مفتوحاً فوق المنضدة .. وجرى راوول بعينيه على عامود الكتب التى خرجت .

زميلى العزيز .. أجزى لنفسى بأن أوصيك خيراً بصديقى راوول دابنيك ، وهو شاب جغرافى ينتظره مستقبل زاهر .. وقد تخصص فى تاريخ موطنك الصغير ويعد بحثاً عن الفن النورماندى .. وأنا على يقين من إنك تهتم اهتماماً كبيراً بهذا الفن وأرجو أن تسهل له أبحاثه وأن تتقبل أيها الزميل العزيز .

وفرغ راوول من خطابه وهو يبتسم ووقعه .. سوف يحصل على المذكرات اذن ، وسوف يفحصها على مهل ويتحقق منها صفحة صفحة ، ولعله يخرج منها بلا طائل ولكن لعله يكتشف شيئاً .. وبالذات ماغاب عن بحث الأستاذ فرينيزو .

وكانت شركة نورمانديا للتاريخ والآثار تقع فى مبنى قديم وهادئ بشارع بونابرت .. وقال راوول يخاطب البواب :

- مستر سيروول ؟

أجابه البواب دون أن يرفع عينيه : الطابق الأول .

وقال راوول يحدث نفسه وهو يصعد درجات السلم :

- أرجو ألا يلقى على أسئلة كثيرة عن الفن النورماندى وإلا فإن صديقى تابارو المشهور يخاطر بأن يفقده اعتباره .

كان بالبواب بطاقة زيارة عادية مثبتة بأربع دبابيس .. وضغط راوول على الجرس .. ماشكل هذا السيروول ؟ تخيله راوول رجلاً قصيراً شحيماً يغطى رأسه بقلنسوة سوداء ويضع قطناً فى أذنيه .. ومرة فترة طويلة ولم يظهر سكرتير شركة نورمانديا .. ولكن هل سمع أولاً ؟ وضغط راوول الجرس مرة أخرى بدون نتيجة .. فقال :

- هذا أمر مؤسف .. خطاب تقديم محرر بهذا الأسلوب الجميل .. لابس .. سأخدم نفسى بنفسى ، ومهما يكن فقد اعتدت على ذلك .

يدبر أموره ، ولكن من عادتي أنا الآخر أن أقلد الخطوط ، فهل فهمت يا بارون ؟ أنا أيضاً أفهم ما يدور حولي .. تريد إذن الاحتفاظ بالمذكرات وحدك .. تخشى أن تقع بين أيد غير جديرة به .. يالك من رجل شهيم .. لعلك تهوى جمع التحف أنت الآخر ؟ إن السيد البارون يهتم بالتاريخ .. السيد البارون رجل مثقف .

امتزج الغضب والحقد والفرح في قلب راؤول ، وتقلص وجهه وضخم قبضتيه .. وتنفس طويلاً ثم أخذ صندوق البطاقات الذي يحتوي على عناوين المشتركين .

ج .. جاردوا .. جافنر .. جالايير .. أه ها هو جالسيران .. البارون جالسيران .. ١٤ مكرر شارع كامبا ساريس ، باريس .

وخرج من المكتب على طرفى قدميه واجتاز الردهة وأغلق الباب خلفه في عناية .. "الأمر بيننا وحدنا الآن أيها السيد الارستقراطي" .



لم يخطئ راؤول ، فإن بيت البارون ، فى آخر حديقة صغيرة ، كان ينطق بالثراء .. كانت الطريقة التى تفضى إلى البسطة مكسوة بالرمل الناعم .. وعلى جانبيها أحواض من الورد ، وعلى اليمين ، خلف ستار من الشجيرات زجاج حديقة شتوية .. ودق راؤول جرس الباب ، وفتح خادم له جسم ملاكم يرتدى ثياب الخدم الرسمية ويلبس فى يديه زوجاً من القفازات البيضاء ، وأحس بصدمة ، فإن هذا الجسد الضخم وهذه الرأس المربعة سبق له أن رآها هناك ، على حافة الماء ، فى القارب، وهكذا لم يخطئ فى افتراضاته واهتدى إلى الأثر الصحيح ، وقال :

.. أرجو أن تعطى بطاقتى للسيد البارون .. أود أن أحادثه فى أمر هام .

مذكرات الكونت يونرفيل : ٦ يونية ، البارون جالسيران .

وألقى نظرة على عامود الكتب المعادة :

مذكرات الكونت يونرفيل ١٤ يونية ، البارون جالسيران .

كان يجب أن تكون المذكرات موجودة إذن .

كان راوول يعرف الخطر الشديد الذى يتعرض له ببقائه فى المكان ، ومع ذلك فقد كان عاجزاً عن الحركة .. أثارت هذه الجريمة حيرته ، وأحس فى غموض بأنه يواجه خصماً قوياً ضارياً شديد العزم .. ومر بيده على جيبه وتمتم :

- هذا عجيب . ولكن لعلها مجرد مصادفة .. وقد أكون واهماً ..

وانحنى فوق السجل: ١٤ يونية ، البارون جالسيران .

وجرى أصبعه على العامود الآخر : ٦ يونية ، البارون جالسيران .

وفجأة أطلق صيحة دهشة .. فإن الحروف لم تكن متشابهة على

الإطلاق فى حين أن المفروض أن التسجيلين قد دونتهما يد واحدة ،

وهى يد أمين المكتبة .. لم يكن هناك أى شك فى أنه هو الذى حرر

التسجيل الأول ولكن التسجيل الثانى ، وهو تسجيل ١٤ يونية كان

تقليداً ، فقد كانت الحروف فى المرة الثانية تدل على أن كاتبها قد

كتبها وهو مضطرب ، فجاء التقليد واضحاً كل الوضوح .

وعندئذ دار المشهد الذى حدث أمام ذهن راوول بدقة ووضوح

كاملين : الرجل . يطلق الرصاص على السكرتير ثم يخفى جثته على

عجل ويدون فى السجل ما يثبت أن المذكرات قد أعيدت حتى يخفى

السبب الحقيقى لإرتكاب الجريمة .

وهتف يقول :

- وأوشكت اللعبة أن تجوز على .. أه .. ذلك أن صاحبنا عرف كيف

.. لماذا استقبلتني إذن بحق الشيطان ؟

قاطعته الآخر قائلاً : أرجوك .. فلنفرغ .. إنك تقتحم بابي وتدخل هنا كما .. كما ..

ويبحث عن تشبيه وعلت وجهه تكشيرة وقال محنقاً : تكلم .. ماذا تريد ؟

والتقت عينياه بعيني راوول ، ومرت بهما لحظة وكل منهما يحدق في الآخر، وكان البارون أول من خفض حاجبيه، وحفاظاً على هدوئه عاود الأكل .. وأخذ راوول فخذ دجاجة من الطبق وهو يقول :

- هل تسمح ؟ إنني لم أتناول شيئاً طوال اليوم . سأشاركك الطعام من غير تكليف .

ولأول مرة ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه البارون وشاركه اللعبة فقال :

- البير .. هات طبقاً للسيد .

أسرع الخادم ذو القفاز فأحضر طبقاً وملحقاته وهو يبدي احتراماً كبيراً ، وعاد راوول يقول :

- أخيراً .. ويزعمون أن واجبات الضيافة أصبحت معدومة .. كلا .. كلا يا ألبير .. لا أريد فجلاً .. لا أتناول الفجل إطلاقاً بسبب الكبد .. قليل من النبيذ .. شكراً .. إنني أهنتك يا بارون فإن طاهيك فنان .. وهذه الدجاجة سميحة وشهية .

وكان البارون قد كف عن الأكل وراح ينظر رغماً عنه وفي دهشة إلى الرجل الجالس أمامه والذي يبدو في تلك اللحظة أنه يفيض ظرفاً وكياسة وعدم مبالاة :

- حسناً يا بارون .. أأكون قد تسببت في فقدان شهيتك ؟ أظن أنها

- هل السيد على موعد ؟

- كلا .

- في هذه الحالة أخشى ألا يستطيع سيدي استقبالك ، ثم انه يتناول عشاءه الآن .

أمسك راوول الخادم من طرف جاكته وقال : وفر كلامك أيها الوغد ، وامض ببطاقتي إلى سيدك ، حسبك أن تقول له إنني قادم من شارع بونابرت .

- لكن ياسيدي ...

- امض .

غلب الرجل على أمره ، ونطق ببضع كلمات متذمراً ، ومضى نحو البيت .. وتبعه راوول في غير مبالاة ، واقتطف في طريقه زهرة ثبتها في عروة جاكته وما هي إلا دقيقة حتى عاد الخادم وقال : أرجو أن يتفضل سيدي ويتبعني .

وتقدم أمام راوول عبر صالون فاخر الرياش إلى غرفة طعام ينبعث منها صوت اصطفاق أطباق ثم أفسح له الطريق .. وانحنى راوول انحناءً كبيرة ونظر إليه البارون وشوكته في يده .. كان رجلاً في الثلاثين من عمره ، ضخم الجسم ، دموى الوجه ، حليقاً كالممثلين ، حاول أن يبدو هادئاً ولكن وجهه نم عن شيء من الانفعال وقال :

- أعترف ياسيدي أن إصرارك يثير دهشتي خصوصاً وأنني لا أدري حقاً .

وهز كتفيه وتناول صدر دجاجة وأخذ راوول مقعداً وجلس أمامه وقال :

- بل إنك تثير دهشتي يا عزيزي البارون .. ألم تخمن سبب مجيئ

- ماذا ؟ .. هل وقع له مكروه ؟

- حادث بسيط .

- حادث ؟ أرجو ألا يكون الأمر خطيراً .

- رصاصة في صدره فحسب ، ولكنها أصابته في مقتل ، بحيث إنه ليس هو الذى أرسلنى حقاً وإنما شبّحه ، وهو شبح ظريف جداً فى الواقع خفيف الروح وعلامة .. ولكنه ثرثار .. ثرثار جداً .. وقد قال لى شيئاً مخيفاً .

وأخذ راوول جناح دجاجة ، وكان يبدو خفيف الحركة ، مرحاً ، وعلى شفّتيه تلك الابتسامة الساخرة المعروفة عنه . وأقصى البارون طبقه وهو يقول :

- ولكننى لا أفهم ياسيدى ..

- قال لى الشبح :

- عزيزى دابنيك .. لن أعرف طعم الراحة فى الآخرة إلا إذا علمت أن شئون الشركة منتظمة وأن مكتبتي العزيزة كاملة لاينقص منها شئ ، ولهذا أرجو أن تمضى إلى هذا البارون الطائش جالسيران وتطالبه .

قاطع البارون قائلاً :

- أه ، إننى لا أفهم إطلاقاً ما الذى ترمى إليه ، وأرجوك أن تكف عن هذرك ، أكرر لك أنتى أعدت تلك المذكرات ثم إن تاريخ إعادتها لا بد أن يكون مسجلاً فى سجل الاعارات فإن سيروول لم يكن يفوته أبداً .

- إن التاريخ مسجل .

- إذن ؟

ليست تلك العبارة البسيطة : "شارع بونابرت" . التى أزعجتك إلى هذا الحد ؟

وتأمل راوول كأسه وشمه ثم قال :

- يا لهذا الأريج ! .. نخب صحتك يا صديقى العزيز .. ونخب نجاح مشاريعك .

بدأ البارون يقول : هلا قلت لى ؟

- طبعاً .. اطمئن .. لقد أرسلنى مسيو سيروول .. هل تعرفه .. وكان البارون يقطع كسرة من الخبز فى تلك اللحظة فهز رأسه وقال :

- طبعاً .. إنه سكرتيرنا الفاضل بشركة نورمانديا للتاريخ والآثار .

- هو نفسه .. حسناً .. هذا السكرتير الفاضل ، مسيو سيروول قد

كلفنى الآن بالذات بأن أطلبك بكتاب .. أو بالحرى بمخطوط يدوى ..

مذكرات الكونت يونرفيل .. ولكن يبدو أن هذا يثير دهشتك يا بارون ..

ألا تصدق أن مسيو سيروول قد كلفنى بهذه المهمة ؟

عقد جالسيران ذراعيه وانتفخ عنقه وتمتم يقول :

- كلا .. لا أصدق ذلك .

- لماذا ؟

- لسبب وجيه ، وهو أنتى أعدت بنفسى هذه المذكرات لمسيو

سيروول ، وهى مذكرات تافهة على كل حال ، ولم أحتفظ بها إلا بضعة

أيام .. إن الخط ردى لم أستطع أن أفك منه إلا القليل وأسلوبها

ممجوج .. وغريب أن مسيو سيروول لا يتذكر إننى أعدتها إليه ..

صحيح أن السن تقدمت به ..

قال راوول موافقاً : هذا صحيح .. لقد تقدمت به السن فعلاً ، هذا

بخلاف ما حدث له .

أطبق البارون قبضتيه وقال : تكلم .

- حسناً .. تصور أن هذا الشبح .. شبح صديقنا سيروول كشف لى عن وجود بصمة إصبع .. بصمة إبهام ملوث بالدم على حافة الوراقة .. وأعترف إننى ما كنت لاكتشف هذه البصمة بمفردى فإن قاتلنا .. بعد دفع الجثة تحت المنضدة اعتمد بيده عليها بحركة آلية لى يقف . ولكننى أتكلم ، وأتكلم .. مرة أخرى التمس معذرتك يا بارون وأشكرك .. هذه الدجاجة ..

- انتظر .. إنك لم تتناول شيئاً من الحلوى .. ثم اننى يجب أن أعترف أنك أثرت فضولى .. إن كل ما تذكره لى عجيب ولم أكن أتوقعه أبداً .. بل إننى أجرؤ فأقول أنه يخرج عن المؤلف . لك أن تجرؤ وتقول ما تريد يا بارون .. إن الوصف صحيح فهو أمر خارج عن المؤلف .

- وإننى اتساءل إلى أى مدى سيخرج عن المؤلف .

- إلى حد أن أذكر لك اسم القاتل ، إذا أردت .

- فلتقل اننى أريد .

اضطجع راوول فى مقعده إلى الخلف وانفجر ضاحكاً ، وكلما ضحك كلما تقلص وجه البارون جالسيران من الغضب .. وتمتم راوول يقول :

- هذا غريب جداً .. كلا . إن أمرك مضحك كما لو أنك لاتعرف القاتل انه أنت يا بارون .. من تريد أن يكون ؟

- عظيم .. إنك تزعم إذن ..

- كلا .

- أه . حسناً . إذن فأنت لاتتمادى إلى حد الزعم ؟

- إنه أمر مؤسف حقاً لأنه ليس مدوناً بخط مسير سيروول .

- بخط من إذن ؟

- بخط قاتله طبعاً .

- وهل تعرفه ؟

- نعم .

- هل أنت من رجال البوليس ؟

- أنا ؟ .. ما هذا السؤال البغيض .. هل يبدو على ؟

- هى مجرد فكرة خطرت لى .. ولكن لماذا تأتى وتذكر لى كل هذا بحق الشيطان ؟ يجب أن تلجأ إلى إدارة البوليس يا صديقى العزيز . استعاد جالسيران رباطة جأشة وراح يخرج راوول فى وقاحة ، وكان هذا الأخير لايزال يبتسم وهم يلتهم الفخذ الثانى فى شهية كبيرة ، وقال :

- حسبت أن هذه القصة ستحظى باهتمامك .

- هى تثير اهتمامى فى الواقع .. كنت أكن نحو سيروول تقديراً عميقاً ، وأعترف أن موته .. وهو على الخصوص مية بشعة .. ولكننى أقول لك مرة أخرى أننى لا أرى لماذا اخترتتى أنا بالذات ؟

- إذا كنت لاترى ذلك حقاً فإنى أكون قد أخطأت ، والتمس معذرتك يا بارون ، قلت لى أن الجأ إلى إدارة البوليس .. هذه فكرة لابأس بها وأراهنك أن نهاية المغامرة ستثير اهتمام هؤلاء السادة ، فقد كان هذا الشبح ثرثاراً .

- وما هى الغرابة فى نهاية المغامرة ؟

- لا .. لا .. لا داعى للإصرار .

صوت أجش :

- كم ؟

- كم ماذا ؟

- ثمنك ؟

- ثمنى ؟ .. أى ثمن ؟ أه .. ولكن من حسبتنى ؟ ثمنى ؟ ولكن لاشئ على الإطلاق .. فأنا .. ما أنا إلا رسول ، ولو أنتى كنت وحدى .. ولكن هناك شبح ذلك المتشكك مسيو سيرول ، وهو فوق تشككه متشدد جداً .. ولكنه معقول أيضاً ، وهو غير حاقد عليك ، ولا يطالب إلا برد المذكرات حتى يمكنه أن يرقد فى سلام ، فقد قال لى : فليعد هذا الوعد المذكرات فالتزم الصمت .. ومهما يكن فأنا لست مستاء أبداً فى الآخرة .

- هذا ابتزاز .

- لكل امرئ أسلحته .

- إننى أوثر أسلحتى .

وضغط البارون على جرس فظهر الخادم ، وبإشارة من سيده مضى ففتح درجا ودس فيه يده المغطاة بالقفاز الأبيض وأخرج منه مسدساً أوتوماتيكياً صوبه نحو راوول ، وقال البارون :

- ولاحركة يا صاحبى العزيز .

وضغط الجرس للمرة الثانية ، وعرف راوول فى الوافد الجديد القزم الأعرج الذى سبق أن رآه هو الآخر فى القارب ، وقال :

- إننى أهنتك يا عزيزى البارون .. لاريب أنك اخترتتهما من حديقة الحيوانات .

وإذ تقدم الشقيان منه بادرهما قائلاً : اخفضا أيديكما أيها

أمسك راوول عن الضحك فجأة ، وقال فى صوت قاطع وهو يحنى رأسه شيئاً ما :

- ليس من عادتى أن أزعم .. إننى أؤكد وأقدم الدليل .. إن أول خبير يأتى لمقارنة نموذج من خطك مع الخط المزيف الموجود فى سجل الاعارات سيقدر أن الخطين متطابقين .

- شريطة أن يقترح أحد القيام بمثل هذه المقارنة .

- سوف يقدم بعضهم هذا الاقتراح .

- ومن هذا ؟

- أنا .

- وهل تظن أن هذا يكفى ؟

- كلا .

- إذن ؟

- سوف يقوم خبير آخر بمقارنة بصمة إبهامك الأيسر بالبصمة الدامية الموجودة على الوراقة .

- وأنت أيضاً الذى ستقترح القيام بهذه المقارنة ؟

- نعم ، أنا .

- بمعنى آخر إن كل شئ يتوقف عليك ، عليك أنت وحدك ، إن

مسيو راوول يريد تصريف أمور الدنيا وفق هواه .

- لعمرى هو ذلك تقريباً .

وكان البارون قد انحنى بدوره ، وراح كل منهما ينظر إلى الآخر من فوق المائدة متحدياً .. وفى ببطء دعك البارون بأصابعه مفرش المائدة فى حين احتقن عنقه شيئاً فشيئاً ، وأخيراً صاح يقول فى

- هذا عين العقل .. والآن ؟ المذكرات ؟ لم يبق غير سبع دقائق وأرجو أن تكون ساعة صديقي مضبوطة وألا تقدم .

قال البارون :

- أيها الوغد .

- إننى لا أطالبك باعتراف .. المذكرات !

نظر البارون إلى المسدس ، وبدأ للحظة كأنه يتردد ثم نهض ، وهو يلقي بمنشفته على الأرض .. ومد راوول يده فى هدوء وأمسك بالمسدس وقال :

- تخطئ إن تلهو بمثل هذه اللعبة ، فإن المصائب تقع بسهولة وفتح الخزان وتحقق من أن رصاصة قد أطلقت منه ثم أعاد المسدس فوق الغطاء ، وكان جالسيران فى الغرفة المجاورة يبحث فى خزان وهو يسب ويلعن . وبدون أن ينطق بكلمة القى بالكتاب فوق المنضدة ، وهو كتاب ضخمة مجلد بالجلد وعلى سطح غلافه تاج الكونتية . وتصفحه راوول على عجل . كانت الصفحات مغطاة بكتابة دقيقة ضيقة حتى الهوامش . وقال :

- هذا حسن .. فلترقد روح سيروول فى سلام .. إليك نصيحة صغيرة يا بارون .. تجنب نورمانديا .. فالجوف فيها رطب وردئ .. والرطوبة ضارة بروماتيزمك .

ووضع الكتاب تحت ابطه وخرج وهو يصفق الأبواب بالجدران تفاديا لأية مفاجأة .. ولكن الخادمين كانوا قد اختفيا .. وتوقف وصاح وهو على البسطة :

- أعلم يا عزيزى البارون أن البصمة الدامية إن هى إلا مجرد مزحة .

الخدمان ألبير ، سوف تقدم لنا القهوة فى الصالون .

ثم ألقى نظرة إلى ساعته وأردف يقول : العاشرة والنصف . ما أسرع ما يمر الوقت .. ذلك أن المرء لا يملكه الضجر فى بيتك يا بارون . آه . أستطيع القول أنك تعرف كيف تسرى عن ضيوفك ، ولكن مما يؤسف له أننى مضطر إلى الانصراف فى خلال ربع ساعة .

- حقاً ؟

- نعم ، فإننى على موعد فى الساعة الحادية عشرة إلا الربع بالتحديد .

- مع امرأة ؟

- كلا ، موعدى هذه المرة مع صديق لا أريد أن أدعه ينتظر .

- بل سينتظر .

- أوه ، أبدا .. فإذا لم أخرج من بيتك بعد ربع ساعة . فسيرسل طردا صغيرا إلى عنوان بالذات ، فهل تخمن ماذا يوجد فى هذا الطرد ؟ كلا . أنت ضيق الأفق يا بارون .. فيه بكل بساطة قطعة من الوراقة مع شرح واف بطريقة استخدامها .

وصب راوول لنفسه قليلا من النبيذ وعقد ساقيه وألقى ذراعه فوق مسند مقعده فى غير اكتراث ، وجرع شرابه فى ببطء وفى نهم فى حين انقلبت سحنة البارون ، وعاد راوول يقول :

- أنت غبى .. وكنت أظنك على جانب ولو يسير من الذكاء ! كيف خطر لك أنه يمكن أن أعرض نفسى لخطر داهم دون ترو .. انصرفا ياهذان .

نظر الخدمان إلى جالسيران فهز هذا رأسه فوضع البير المسدس أمامه ، وانصرف مع زميله وهما يتنمران وقال راوول :

الفتاة البائسة

دفع الغضب براوول خارج الفراش وأسرع إلى الباب . لم يفكر السارق حتى في أن يغلقه خلفه ، وكذلك باب الردهة كان مفتوحاً . وعاد إلى غرفته وهو يرتجف من الغيظ . لقد غرر به ولم تكن السرقة هي التي أخرجته عن طوره وإنما الجرأة التي تمت بها .. إنه خسر المعركة .. ليكن .. فهذه أخطار المهنة ، ولكن أن يسترد البارون المذكرات تحت أنفه فهذا ما لم يستطع أن يهضمه . وتملكه في نفس الوقت خوف أصم ، فقد عرف جرأة العدو على حقيقتها مرة أخرى وتأكد من تصميمه . ستكون المعركة ضارية تحفها الأخطار ، لا رحمة فيها ولا هوادة . وأرغم نفسه على الضحك ، ولم يلبث ، وهو يقوم بتمريناته الرياضية الصباحية ، أن ابتسم وهو يفكر في الهجوم المضاد .. صحيح أن المذكرات الآن بعيدة عن يديه ، ولكن يبقى الشيخ . أه أما هذا فسوف يحمله على الكلام ، ويأسرع ما يكون .

وصلصل جرس التليفون ، وكان يتوقعه ، فتناول السماعة :

- الو .. هل تعرف صوتي ؟ نعم يا صديقي العزيز .. هو أنا . يجب أن أعتذر لك ، فأنا لم احسن استقبالك أمس .. فقد كان العشاء متواضعاً ، وقد استولى على الخجل فلم يغمض لي جفن ، وقلت لنفسى ماذا لو أقوم بزيارة قصيرة لهذا العزيز راوول ؟ كانت بطاقتك معي وعليها عنوانك . وكان الوقت متأخرا بعض الشيء ، ولكن الحرب هي الحرب ، أليس كذلك ؟ وبهذه المناسبة ، أسديك نصيحة ، وهي أنه

ثم أسرع إلى الحديقة وهو يضحك .

وبعد نصف ساعة كان ينضو عنه ثيابه في مسكنه الذي يتخذة في بوليفار بيرير ، وحدث نفسه قائلاً :

- لا أستطيع الاحتمال .. ولكنني غلبتك على كل حال يا بارون وقهرتك . ولا شك الآن أنك تتميز غضباً وتتلوى فوق النار ، أتحرق أقدام الشيوخ .. أنا بدوري أشويك على نار هادئة .

وتتأعب طويلاً ، وأخذ يرقص وهو بالبيجامة في مرح ويقول :

- أوليه ! رقصة الشبح ! فليسقط الارستقراطيون .. وفكر فجأة في الفتاة الشقراء ، هناك ، في قصر الجميلة النائمة وتمتم :

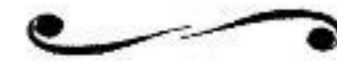
- أه أيتها الأميرة ! لو أنك رأيت فارسك الجميل .

وتنهده واستلقى فوق الفراش وفتح الكتاب ، ولكن التعب حل عليه فجأة وغلبه على أمره فقال :

- غدا العمل يا عزيزي لو بين .. يكفي ما فعلته اليوم .

وأطفأ النور ونام على الفور .

وكان النهار قد طلع منذ مدة عندما استيقظ .. وكانت أول حركة منه أن مد يده نحو الطاولة ولكنه لم يتمالك من أن يطلق صيحة ، فقد اختفت المذكرات .



من الذين اعتدوا عليه ، ولن يستطيع مقاومة استجواب يتم برفق .. سيكشف لمنقذه عن سر قصر يونرفيل ، وسيضطر البارون إلى الرضوخ للأمر الواقع . وفي تلك اللحظة بالذات هزأ راوول بالسر لأنه لم ير فيه إلا الوسيلة للانتصار على غريمه ولإعادة سخرياته وتهكماته إلى حلقه .

وارتدى ثيابه على عجل ، ولم يطق البقاء مكانه . ودار المحرك عند أول دورة ، ووثب راوول وجلس أمام عجلة القيادة . وكانت السيارة في حالة جيدة ، ولكنها في ذلك اليوم بالذات كانت أكثر من ممتازة . لم يقع لها أي عطل ولم تنفجر عجلة من عجالاتها ، ولم تلتق بغير بضع عربات يجرها أصحابها باليد في الطريق النورماندي ، وكانت السيارة تتجاوزها كالعاصفة ، تخفيها على الفور موجة من الغبار . وفي آخر الضحى أبصر راوول قبة جرس كنيسة نوتردام دي جراس .

- حسناً يا عزيزتى فيكتوار .. والمصاب ؟

وكان قد أسرع فدخل الغرفة يدفعه الغضب إلى التصرف والإسراع بالعمل وإلى أن يعرف كل شئ على الفور .. وتمتم برونو :

- صه . انه ينام .

- هل تكلم ؟

- لم يتكلم بعد .

- والحروق ؟

- فى طريقها إلى الالتئام .

- عجل بتقريرك أيها الطبيب .. هل ينبغي أن أنتزع منك الكلام انتزاعاً ماذا يقولون فى البلد ؟

يجب أن تغير أقفالك ، فإن دخول مسكنك من أسهل الأمور ، وعليه ، فقد دخلت ، ولكن ماذا أرى ؟ هذا العزيز دابنيك ينام كالملائكة . لم يطاوعنى قلبى على إيقاظك ، فأنا لست رجلاً شريراً .. واكتفيت بأن أخذ معى تذكارا .. تذكراً تافهاً إشارة إلى مرورى . وإذا كانت المذكرات قد أثارت اهتمامك حقاً لوجدتك عاكفاً على قراءتها ، ومع ذلك فإننى أؤكد لك أنها جديرة بأن تقرأ .. فهى تحتوى على أشياء .. وأشياء . وسوف أحرص عليها بعد قراءتها ولكن هل تعرف ما يجب عليك أن تفعل ؟

وتبدل صوت البارون فأصبح ضارياً وهو يستطرد قائلاً :

- عليك أن تستقل أول قطار إلى إيطاليا وأن تمضى هناك بعض الوقت للاستجمام بعيداً عن باريس .. بحيرة كوم مثلاً .. أو البندقية إذا شئت .

قال راوول :

- وإذا رفضت ؟

- سوف تندم على ذلك ، فأنا رجل كريم ويحزننى أن يقع لك شئ . كلا . لا داعى لأن تشكرنى .. وإذا أتيت مرة أخرى للعشاء فأخبرنى قبل ذلك ، فإننى أعلم أنك رجل أكول حقاً .

قال راوول : أوه .. إننى رجل بسيط .. لن أطلب منك أكثر من هذا الطبق الذى تجيد طهوه .

- آه .. وما هو ؟

- الأقدام المشوية .

واعاد راوول السماعه .. كانت له الكلمة الأخيرة . وكان هذا عزاءً ضئيلاً ، وإذا أصر الشيخ على الصمت .. ولكن لا .. إنه يريد أن ينتقم

لايستطيع إنقاذك دائماً .. إننى واجهت الأخطار العاجلة ووضعتك فى مكان أمين ، وقدمت لك طبيباً وممرضة ، ولكن يجب أن تساعدنى الآن .

راحت عينا الشيخ المسكين الرماديتان النصف مطبقتين تحت اهدابه المسدلة تفحصان الرجل المجهول المنحنى فوقه والذي يحس بسلطانه كانعكاس نار الموقد، فى حين عاد راوول يقول :

- يجب أن تساعدنى ، وليس ذلك لصالحى وإنما لصالحك أنت ، فأنت تعلم تماما أن أصدقاءك الثلاثة الذين عذبوك فى المحجر لن يتركوك فى أمان .

وأمسك برناردان من كتفيه وانحنى فوقه ، كمصارع يلقي بغريمه على الأرض ، واردف يقول فى لهجة خطيرة :

- فإننى أعرفهم .. وأعرف قسوة زعيمهم ، ومهما فعلت فسوف يعثرون عليك . وسأصل عندئذ بعد فوات الأوان .. ولكن إذا تكلمت فقد أستطيع إنقاذ كل شئ .. دم من اذن ؟

تسارعت أنفاس العجوز وفتح فمه ، وأدرك راوول أن عملاً غامضاً يدور فى هذا الذهن الذى لازال متأثراً من العذاب الذى تعرض له ومن الإرهاق .

- دم من ؟

خفض برناردان جفنيه فى بطاء وبدا وجهه متجمدا تحت غضونه كوجه الميت ، واعتصم بصمته منطويا على سره . وانتظر راوول قليلاً ثم اعتدل واقفا فى سكون، وجفف بمنديله العرق الذى يتصبب من جبينه وتمتم يقول :

- أنا رجل صبور، ولايمكن أن تتصور إلى أى حد أستطيع الصبر

- لا شئ .. بضعة أسطر فى الايكو دى تروفيل فحسب . يعتقدون أن الشيخ .. الأب برناردان كما يدعونه .. يختفى مؤقتاً .. وأنه راح ضحية فقدان الذاكرة .

أمسك راوول بمعصم برونو وقال :

- ولا كلمة .. احرص على ألايعلم أحد بوجوده هنا .. وبعد ؟ ألم يتكلم أحد عن القصر ؟ وعن نوم أصحابه ؟

هز برونو رأسه فعاد راوول يقول :

- طبعاً ، فلم يفتن أحد لما حدث .

وعاد برونو يقول : وقد أقبلت الشرطة من أجل الشيخ . هذا ما سمعته فى الحانة ، فقد تجولت فى البلد كما لو كنت سائحاً عادياً ، ولكن الأهالى هنا يرتابون فى الأجانب .

همس راوول :

- استمر .. قل كل شئ .

كان يراقب الشيخ برناردان ، فقد لاحظ ارتجافة الحاجبين وعرف أن الرجل لا ينام وأنه يصغى ، وأدرك لعبة المصاب وفهم أن برناردان لن يستسلم بسهولة ، فقد انتزع من القصر وأصبح لايرى فى كل مكان غير الأعداء ، وهو الآن ، إذ يسترد قواه، يلوذ بالصمت ويحتمى به ويحصن نفسه به بكل العناد المعروف عن الفلاح النورماندى .

- حسناً يا برونو .. دعنا الآن .

وجلس راوول على حافة الفراش ، وفى رفق غير متوقع وضع يده على كتف الشيخ وقال :

- هيا يا جدى .. حان الوقت لكى تفتح عينيك .. راوول دابنيك ، هل تعرفه ؟ القلب النبيل الذى أنقذك من الخطر مجازفا بحياته . ولكنه قد

والشيخ يرفض أن يعيد ماسبق أن أدلى به تحت لسعة الألم ، فأين يوجه الهجوم ؟ وإلى أين تقوده هذه الزيارة التي يزعم أن يقوم بها للقصر .. كان راوول يتخبط ، وأحنقه شعوره بالعجز في حين أن سرا هائلاً يتعرض لأن يكتشفه بعض المجرمين الأشرار الذين لا يميزهم عنه شيء غير أنهم لا يتورعون عن استخدام العنف .. ولا ريب أن هذا السر هائل حقاً لكي لا يتردد البارون في التعذيب والقتل كما لو أن الوقت لا يسعفه وكما لو أنه إذا ماضى تاريخ محدد ولم يهتد إلى هذا السر يكون الأوان قد فات ، وما كان لشيء آخر أن يثير حنق راوول هكذا .. كان السؤال يدور في رأسه دوران محرك السيارة .. دم من ؟ دم من ؟ كان السر يدور حول الدم ويتسبب في العنف والموت .

وأدخل سيارته عند مدخل يونرفيل ومضى إلى القصر في خطى ونيمة غير مكترث بحر الصيف، وفي منتصف الطريق اضطر لأن يبحث عن مكان يلجأ إليه على حافة الطريق لكي تمر سيارة تنطلق بأقصى سرعة .. ومع ذلك فقد وجد من الوقت متسعاً لكي يعرف الرجل ذا الحاجبين الكثيفين والوجه الصارم الذي يجلس بجوار السائق، وتذكر الوجه الذي رآه على ضوء مصباحه الكهربائي في الليلة الماضية في القصر .. هوبير فيرانج .. وراق له ذلك فان غياب فيرانج سيترك له مطلق الحرية .. وأحس بالقوة والنشاط وعاد يمشي .. وكان هناك شرطى يتحدث مع امرأة قروية تحمل دلوا من الماء فاقترب راوول بادي الفضول كالصحفي الحقيقي وقال في رفق وفي مرح :

- صباح الخير .. ريشار ديمون ، صحفي بجريدة ايكودي فرانس .

سكت الآخران وقد بدا عليهما الإنفعال .. وألقت المرأة دلوها

سأنتظر الوقت الذي لا بد منه .. ومقامك هنا لا بأس به ، وسأظل محتفظاً بك . ولكنك لست أسيراً .. إنما أنت تحت المراقبة فحسب .. عندما تريد أن تتكلم تكفى إشارة بسيطة وتجذني أمامك .. وعندئذ نستطيع أن نفعل معاً عظام الأمور . وسوف ترى . وأنت على حق . ولكن خلف راوول عشرة رجال آخرين .. وعشرون أسطورة .. إن تاريخ فرنسا أمامك في هذه الغرفة .. مرحى يا برناردان ، أنت رجل محظوظ لأننى اهتم بك ، وأقسم لك أننا سنمضى معاً حتى نهاية المغامرة .. بل إننى سأعترف لك بشيء .

وأمسك راوول فإن أنفاس الشيخ انتظمت .. غلبة النوم ، واذ رأى راوول ذلك خرج على طرفي قدميه ، وكان برونو ينتظره في الردهة فسأله : حسناً .

- إن العجوز شديد المراس ، ولكن سينتهى به الأمر إلى أن يتكلم . استمر في مراقبتك له . أما أنا فسوف استبدل ثيابي ثم أمضى إلى القصر .

وأخذ راوول من سيارته حقيبة سفر ضخمة ، وبعد عشرين دقيقة كان قد اتخذ هيئة صحفى شاب يرتدى جاكيت من الجوخ وتتدلى من كتفيه آلة تصوير .. وعانق فيكتور ثم قال : سأعود الليلة يا عزيزتى فيكتور فكفى عن التأوه والنواح .. أقول لك اننى لا أتعرض لأى خطر ، والدليل اننى أريد أن اتناول عند عودتى طبقاً من العجة اللذيذة التي تجيدين صنعها .. وجلس فى سيارته التي يعلوها الغبار وانطلق فى سرعة عادية فى طريقه إلى يونرفيل .

كان يجب أن يجمع شتات أفكاره وهو أمام عجلة القيادة إذا ما أراد أن يبنى خطته للمعركة، ولكنه فى هذه المرة كان لا بد له من أن يعترف بأن الموقف يتجاوز كل قدراته ، فالملذكات بين يدي البارون ،

قال : وكيف السبيل إلى مقاومة هذه الإبتسامة الفتية وهذا الظرف البالغ ؟

وقالت أبولين : يجب أن استأذن الأنسة .

وقال الشرطى : الأنسة لوسيل ، ربيبة مسيو فيرانج .

وبينما كانت أبولين تمضى إلى القصر استطرد وهو فخور بأن يظهر لصحفى باريسى أن الشرطى يمكن أن يكون شيئاً آخر غير الشخصية الكاريكاتورية التى يتندر الناس بها :

- وهى فتاة فاتنة لقيت الكثير من المصائب ، فقد فقدت أبويها منذ سنتين بطريقة غريبة ، فقد غرقا أثناء نزهة فى البحر ، ويبدو أن جاك فيرانج كان مهندساً ينتظره مستقبل عظيم ، باع الكثير من الاختراعات للأمريكيين وأصاب ثروة كبيرة فى بضع سنين . وكان القصر معروضاً للبيع فاشتراه . ولكن يبدو أن هذا القصر لا يجلب الحظ لأصحابه ، فقد فتشوا الساحل كله ولم يعثروا حتى على الحطام . كان زورقا شراعياً صغيراً طوله ستة أمتار ، وكان مسيو جاك مغرماً بركوب البحر . رأيت إلى عجائب الصدف ؟ عندما كانا يخرجان للنزهة كان من عادتهما أن يصطحبا الأنسة لوسيل معهما دائماً . لازلت أذكر تقرير ضابط الساحل ، وقد أثارتنى هذه النقطة فى ذلك الوقت . كانا يصطحبانها دائماً ولكنهما فى ذلك اليوم بالذات تركاها فى القصر .

كان راوول يصفى فى اهتمام كبير ، وكان ذهنه يسجل كل صغيرة وكبيرة ، يفحصها ويحللها ويؤبها فى ذاكرته العجيبة . وقال يسأل الشرطى : ألم يعثروا على الجثتين أبداً .. إن البحر يلفظ الجثث عادة .

- لم يلفظها تلك المرة ، ولكن الشئ الذى يثير الحزن أكثر من غيره هو أن الفتاة المسكينة أصابها المرض على أثر هذا الحداد . ولم يعرف

وجفت يديها .. وحياه الشرطى . وقال راوول :

- سمعت القوم يقولون إن رجلاً اختفى . وكنت أمر بهونفلير فرأيت أن أتحرى الأمر قبل أن أعود إلى باريس .

وكان يبدو صادقاً ، وانتزع عطفهما وأعجابهما بحيث لم يسع الشرطى إلا أن يقول :

- أوه ، كل مافى الأمر أن الأب برناردان طاب له أن يسرى عن نفسه قليلاً وأثر أن يختفى بضعة أيام كما سبق أن فعل ، أليس كذلك يا أبولين ؟

هزت أبولين رأسها وهى تشعر بشئ من الأرتباك إذ دعاها الشرطى باسمها المجرى أمام رجل غريب ، وقالت : لاداعى للاهتمام فهو لم يعد يحتفظ بكل قواه العقلية .. وسيعرف كيف يعود وحده .. إن مواطنيك الباريسيين لديهم مشاغل أخرى بالتاكيد .

وعاد الشرطى يقول :

- إذا أردت نصيحتى فالزم الصمت فإن مسيو فيرانج لن يروق له أن تضخم الصحافة مثل هذا النبأ التافه .. ثم إنه طويل الباع ولن يقف ساكناً .

- لم أكن أعرف هذا القصر .. إنه رائع .

اصطبغ وجه أبولين سروراً ، وقتل الشرطى شاربه وقال :

- أجل .. وإن القوم يأتون من بعيد لرؤيته ولكن مسيو فيرانج لا يسمح لهم بزيارته ، وإن كان هذا يسعد الأب برناردان ، فهو يعتبر القصر قصره ، وله العذر فى ذلك فقد قضى فيه كل عمره .

وتدخلت أبولين فقالت : بل إنه ولد فيه .

أخرج راوول آلة التصوير من جرابها والصق عينه بعدستها ثم

- دعيه .. دعيه .. سأرده إليك في آخر المر .

كان ذلك الصحفي رجلاً ممتازاً وخدموا واطيفا ، فكيف لاتسرع أبولين وترد على أسئلته :

إنها تعرف أن الصحفي يجب أن يكون فضولياً ، ولهذا راحت تبوح له بكل ماتعرفه . نعم ، إنها خادمة وطاهاية في نفس الوقت ، وزوجها اشيل ، يعمل بستانيا وسائقاً في وقت واحد . أما العجوز برناردان فإن وظيفته غامضة ، فهو يروق له أن يقول عن نفسه أنه رئيس الخدم لأن هذه الصفة كانت تعيد إلى ذهنه الأيام الخوالي .

"وهو رجل غريب الأطوار حقاً ، ويجب أن تراه وهو يأخذ كل شيء مأخذ الجد ، وأن تسمعه وهو يبزر لنفسه .. رجل مزعج .. وحفيدته المسكينة ! إنه يبذل كل جهده لكي يضيع عليها المدرسة في أغلب الأوقات . يقول إنهم لا يعلمونها هناك شيئاً غير الأكاذيب .. شيخ مجنون .. والآن ، أعد إلى دلوى فقد وصلنا " .

أفضى بهما ممر يدور بالقصر إلى البستان . كانت لوسيل هناك ، تحت شجرة كستناء ، متمددة فوق مقعد مستطيل والكلب عند قدميها . وكانت تقرأ جريدة . وكانت أكثر جمالاً وأكثر فتنة مما رآها في الليل وهي سادرة في نومها . واعتدل البولروج على قوائمه المعوجة وراح يزمجر .

- أرقد يابولوكس .

كانت تتكلم بذلك الصوت المتعب الذي يتكلم به المرء الذي يفقد الأمل في الشفاء وألقت الجريدة فوق ركبتيها ورمت الزائر بابتسامة حافلة بحزن مثير ، وانحنى راوول وقال :

- ريشار ديمون ، من جريدة ايكودي فرانس .

أحد سبب علتها ولكنها كانت لاتذوق الطعام ولا النوم كما تقول أبولين . وكانت تقضى أياما برمتها على مقعدها المستطيل في البستان . وصحيح أن البيت لايدعو إلى المرح ، فإن مسيو هويير ، القيم يقضى وقته في المصنع فهو يملك مذبغة للجلود في بون اوديمار ، والفتاة المسكينة دائماً وحدها . هناك عمها الفونس طبعاً ولكن ما من أحد يراه أبداً ، ومع ذلك فهو لايقيم بعيداً ، فقد ورث البيت الذي كان المهندس يقيم فيه قبل أن يشتري القصر .

صاح راوول وهو يضحك :

- ولكنك تعرف أكثر مما يعرفه أى محام .

ابتسم الشرطى بدوره وقال :

- هذه مهنتى . ثم إن آل فيرانج من علية القوم ، ولهذا فإن الجميع يعرفون عنهم كل شيء تقريباً .

- وهذه الطفلة التي تختفى هناك ، خلف حوض الزهور . من هي ؟

- آه . هي فاليرى ، حفيدة الشيخ برناردان . وهي الأخرى يتيمة ، وجدها يقسو في معاملتها ، ولكنه يعبدها ، ولهذا السبب بالذات لا أفهم لماذا رحل دون أن يخبرها أين هو ذاهب .

عادت أبولين في هذه اللحظة وقال : إذا تكرم السيد أن يتبعنى فإن الأنسة يسرها أن تتحدث إليه .

قال الشرطى : أنت رجل محظوظ .

بسط الصحفي المزعوم يده إليه وقال : أشكرك مرة أخرى ، ولا تخف ، فسوف أكون كتوماً .

وأمسك بدلو الماء وقاوم أبولين التي أرادت أن تأخذه منه قائلاً :

والاهتمام عوضاً عن المحبة والحنان .

كانت لوسيل تصفى إليه في دهشة متزايدة ، واستطرد راوول يقول :

- ولكنك ذات مواهب متعددة ، وإذا كنت تتوهمين أوهاماً كاذبة ، وإذا كنت تتصورين أنك أشقى المخلوقات .

قاطعته لوسيل قائلة : ولكننى أشقى المخلوقات .

وتصاعدت الدموع إلى عينيها ، وتمتمت : أوه ، لماذا لم يصطحباني معهما في ذلك اليوم ؟ لماذا ؟ لكان الموت قد طوانا نحن الثلاثة .. لقد كنا سعداء جداً .

قال : تكلمى .. استمرى ، فأنا صديقك .

وأخذ يدها وضغط عليها في رفق ليعيد إليها قليلاً من الدفء ، وعادت تقول في هدوء أكثر :

- ماتا في التاسع عشر من أغسطس ، بعد تسعة عشر عاماً ، يوماً بيوم من أول لقاء لهما .. وهو لقاء مأساوى حقاً ، فقد اشترى أبى قبل زواجه بيتاً خلف كنيسة سانت ادريس ملحقا به بيتاً آخر صغير للصيد وهو عبارة عن كوخ ملتصق بالصخور أمام خليج صغير لم يكن يوماً أحد على الإطلاق وكان يستجم فيه ويرسم لأنه كانت له كل المواهب . وذات يوم سمع بعضهم يصرخ طالباً النجدة .. كانت فتاة .. أمى المقبلة .. كانت فى بلاج مجاور فجرفها التيار، ولو لم ينقذها أبى فى الوقت المناسب لغرقت لامحالة .. ولم يمنعها ذلك من الموت غرقاً على كل حال .. بعد تسعة عشر عاماً .. هل تؤمن بالقدر يامسيو ديمون ؟

- طبعاً ، مثل جميع الذين تحفل حياتهم بالمغامرات ، وماذا حدث

وقالت لوسيل : أبولين ، امضى وهاتى مقعداً .

ولكن راوول أسرع يقول محتجاً : لاداعى لذلك . عندما يكون أمام المرء مرجة جميلة مريحة كهذه فإنه يكون فى غنى عن المقعد .

وجلس فوق العشب ، عند قدمى الفتاة ، بدون تكليف ، ثم ربت على رأس البولودج ، بين أذنيه ، وسال لعاب الكلب لفرط سعادته واستمرا المداعبة . ولاحظت لوسيل ذلك فى دهشة وتمتمت :

- هذا غريب . ومع ذلك فإن بولوكس شرس .

- هذه مهارة اليد ، ثم إننى أعرف كيف أعامل الحيوانات والرجال .. لست أخرق إلا مع الفتيات .

وانفجرا ضاحكين معاً ، واكتسبت وجنتا لوسيل قليلاً من اللون . وفكر راوول "اضحكى يا جميلتى ، ولا تفكرى فى أيام الشقاء .. أريد أن تحبى الحياة وأن تفتتنى بها وأن تنظرى إلى بهذه النظرة الساحرة دائماً .."

واقطف زهرة من زهور اللؤلؤ ، وأخذها بين أسنانه ، وقال :

- كان يسعدنى أن أهنتك على هذا القصر الجميل ولكننى علمت أنك لقيت فيه من التعاسة والشقاء أكثر مما لقيت من سعادة وهناء .. ولهذا يجدر بنا أن يقتصر حديثنا عنك أنت .

- أوه ، عنى أنا .. أنا لست شيئاً .. مادمت تعرف كل شئ فلا بد أنك تعرف .

وتهدج صوتها فقال ريشار ديمون المزعوم : هيا ، تشجعى .. أنت فى السابعة عشرة .. ولاترين غير وصى متذمر وخدم مذعورين وذلك الشيخ المجنون برناردان .. تشعرين بأنه لم يعد لك ماض ولا مستقبل ويتملك الضجر بحيث تدعين المرض لكى تشعرى بشئ من الرعاية

رفعت إليه نظرة حزينة من عينيها البنفسجيتين وقالت فى تفكير :
- إننى لا أعرفك ياسيدى ، ولكنك تختلف كثيراً عن الآخرين .. نعم
.. إننى أثق بك .

- يمكنك ذلك ، بل يجب أن تثقى بى . والآن اصغى إلى .. عودى
إلى البيت ، ولاتتحدثى عن زيارتى مع وصيك . وغدا ، فى تمام
الساعة الثالثة سوف نلتقى . ليس هنا .. بل خارج القصر .. عند
ناصية البستان والطريق قد يكون لدى الكثير لأخبرك به . كلا .
لاتسألينى فلزال الوقت مبكرا . إلى اللقاء أيتها الفتاة العزيزة .
ابتداء من الآن ، ومهما يحدث ، قولى لنفسك إنك لست وحدك وإن
هناك شخصا على مقربة منك ، يسهر فى الظلام ولن يسمح لأحد أن
يمس شعرة من رأسك .

- هل تظن إذن اننى فى خطر ؟

وضع إصبعها على شفثيه وقال : غدا .. الساعة الثالثة .

•••

قرية برفيل .. والبحيرة على نهر السين ، وطريق الهافر .. كان فى
مقدور راوول اجتياز هذه الطرق مغمض العينين طالما بدت له مألوفة
.. أل هذا السبب كان يشعر بكل هذا النشاط وهذه الحيوية ؟ وقال
يحدث نفسه :

- هيا ، كن صريحا .. لاتحاول أن تخدع نفسك .. اعترف أنك
سعيد ، سعيد بصورة غير معقولة لأنك تريد إنقاذ هذه الفتاة اليتيمة
الضائعة .. لأنها جميلة ولأنك لوبين .. لأنك غبى لايرجى صلاحك ورغم
كل شئ فإننى أحب نفسى كما أنا ..

واجتاز إحدى القرى والطيور تحلق فوقه مذعورة . واستأنف

لذلك البيت الصغير ؟ هل باعه أبوك ؟

- كلا بل اجتفظ به للذكرى . ولكنه لم يكن يختلف إليه . ولاريب أنه
فى حالة يرثى لها الآن .

راح راوول يفكر ، وبدأ بتلك الغريزة العجيبة التى أتاحت له كسب
كثير من المعارك يخمن أن خلف هذه المصادفات شيئا كئيبا ، ملتويا ،
أشبه بمؤامرة . قال : هل يمكننى أن أزور هذا البيت ؟

أجفلت لوسيل على الفور وقالت :

- إننى بحت لك بسر ولا يجب أن يعرف به أحد .

- اطمئنى .. لن يعرف احد .

وكانت بهجته تفيض بالاقناع بحيث اطمأنت لوسيل على الفور .

- سر فى طريق الصخور نحو ثلاثة كيلو مترات أو أكثر قليلاً بعد
كنيسة سانت ادريس ، وهناك تجد دربا منحدرأ والبيت المعروف
باسم "الصخرة الكبيرة" .

- سؤال آخر .. أظن أن أمك كانت عاطفية جداً .. ورومانسية جداً ؟

- نعم ، واننى أشبهها كثيرا .

قال راوول يحدث نفسه : طبعاً .. بدأت أفهم .

ووثب على قدميه وهو ينهض متلهفا .. أحس بالرغبة فى إدهاش
الفتاة وفى النضال من أجلها حتى يعيد إليها البسمة ، وفى نفس
الوقت أحس بأن خطرا خفيا يحوم حولها . وكان الإحساس من القوة
بحيث ألقى نظرة فاحصة على الغابة ، ولكن لو أن أحداً كان يختبئ
على مقربة منهما لنبح الكلب .

وقال يسأل الفتاة : هل تثقين بى ؟

يعتمد عليها في هبوطه وصعوده ، وتجعل الطريق آمناً بعيداً عن الأخطار رغم الفضاء الذي يبدو كأنه يكمن دائماً للمتسلق . ولم يلبث أن بلغ بلاجا ضيقاً محصوراً بين نتوعين صخريين تهيمنان عليه من عل .. وكان الإحساس بالوحدة والعزلة يكاد يكون مضمناً ، وكانت الصخور تمتد حتى الأمواج الأولى .. ورأى على اليمين كوخاً بدا له أنه يستند على الصخور .. وكان لابد للمرء من بلوغ البلاج لكي يراه .. ودار حوله وتحسس مصاريعه بيده ، وكانت لاتزال متينة ، وكان الباب موصداً .. وقد حولت الرطوبة جدران الكوخ إلى اللون الأخضر .. ولكن الكوخ نفسه قاوم تقلبات الجو المختلفة رغم إحساس الهجران الذي يبدو عليه .. وبين ظهر الكوخ والصخور مكان ضيق مزدحم بالانقاض والبقايا : أدوات قديمة ومجاديف وسلم نخره السوس وأكله الملح وصناديق للصيد .. ووضع راوول يديه على خاصرتيه وراح يفحص في تفكير المنظر الغريب الذي أمامه . وتمتم :

كل هذا سخيف .. سخيف .. ولكنه جذاب .. يستطيع من يعيش هنا الاستغناء عن العالم وما فيه .

وأخرج من جيبه علبة مسطحة تحتوى على عيدان معدنية مختلفة الأشكال وراح يعالج القفل الذي قاومه كثيراً لفرط ما علاه من صدأ ، وانفتح الباب أخيراً ودفع إليه بنسمة من الهواء المخزون تفوح بالعفن .. ودخل .. وألقى نفسه في غرفة لاريب أنها كانت تستخدم فيما سبق لتناول الطعام والنوم ، فقد كان على يسارها أريكة كبيرة وفي آخرها حامل للرسم ، وكانت هناك لوحات لاتزال معلقة لصق الحائط .. وعلى اليمين مائدة لأثنين والأطباق معدة فوقها .. وفي بين الأطباق سيقان مسودة في طريقها إلى التلف .. وفي الموقد قدر انهار فوقه كومه من الرماد .. وقال لوبين :

منولوجه قائلاً :

- ليست مصادفة أن يموت جميع أصحاب قصر يونرفيل الواحد بعد الآخر بطريقة مأساوية ، وليست مصادفة أن يعذب البارون الأب برناردان، فهل هناك علاقة تربط بين كل هذه الأحداث ؟ وما هو الخطر الذي تتعرض له لوسيل .. لا أدري ، ولاداعي للعجرفة . إن مثل هذه الأحداث لا يمكن أن تجوز على فإنتى أملك أثراً صغيراً وهو أن جاك فيرانج وزوجته قد لقيا مصرعهما قتلاً .. ولكن كيف ؟ ولماذا ؟ هذا أمر غامض .. القديس جان يخلف يعقوب ، ودارتنيان .. حسناً ، لا داعي للإصرار .

ويبلغ صخور سانت إدريس .. وأشارت له إحدى الفلاحات إلى كوخ الصخرة الكبيرة كيلو متران آخران ويرى الدرب . ولكن يجب أن يتوخى الحذر لأنه وقعت انهيارات أثناء الشتاء الماضي . وترك راوول سيارته في أحد المنعطفات وتابع طريقه على قدميه . وعادت إلى ذهنه ذكريات حاول جاهداً أن يقصدها عنه ، فقد خيل له ، وهو في بقعة أخرى ، غير بعيدة عن المكان الذي هو فيه الآن ، بينما كان يبحث عن مأوى يخفى فيه شدته وضيقه إن كل شئ قد انتهى ، وأن الحياة ، لن تواتيه بعد ذلك بأية بهجة أو أى مرح . ولكن رجلاً مثله كان خليقاً بأن يجتاز في حياة واحدة حشداً من الحيوانات المتتابعة . وأحس بأعجوبة بأنه جديد وأنه ينبض نشاطاً وحيوية . لن يستعصى عليه سر يونرفيل مدة طويلة فما من شئ استعصى عليه حتى الآن .

انحدر الشاطئ الصخري ، ولم يلبث أن اكتشف الدرب الذي ينحدر خلال أرض معشوشبة وقال :

- يا للشيطان .. لقد كان السيد فيرانج مغرماً بالتسلق .. ولكن سرعان ما تحقق أن بالطريق نتوءات طبيعية في مقدور الإنسان أن

المقبرة

كان الظلام شاملاً .. وجلس راوول وتحسس نفسه .. لم يصب بأى جرح .. ومد يديه حواليه ولم يلتق فى كل مكان بغير الرمال .. كان موجوداً فى قبو ، وكان البيت مشيداً على اساسات خفيفة ، ومع الزمن تغلبت الرمال على الاستحكامات فجأة وبدأت تتسرب مياه البحر داخل حطام .. ووقف راوول واشرباً على قدميه بقدر المستطاع ، ورفع ذراعاً إلى مافوق رأسه ولم يلتق إلا بالفراغ .. وكان المصباح الكهربى الذى لايفارقه مطلقاً قد تحمل الصدمة ولم يعكس غير شعاع خفيف ، ولكنه كان من الكفاية لكى يضىء باب القبو .. لم تكن به أية حلقة ولا أية خشونة .. كان الزميرك القوى الذى يعيد الباب الخشبى القلاب إلى مستوى الأرض مركباً فى تجويف من البناء لا يمكن الوصول إليه.

أدار راوول شعاع المصباح الكهربى حوله .. كان القبو واسعاً وشاغراً تماماً .. لم يكن به أى مقعد أو أى صندوق يمكن الوقوف عليه للوصول إلى الباب القلاب .. وحتى لو كان هناك مايسطيع أن يقف عليه ويصل إلى الباب فما كان فى مقدوره أن يفعل أى شئ لأن الباب نفسه كان أملس وما كان فى استطاعة أى مخلوق أن يزحزحه على الإطلاق .. ومع ذلك فقد انعكس نور المصباح على شئ تآلق فى أبعاد ركن من القبو ، فاقترب راوول منه وما كاد يفعل حتى تفصد العرق من جبينه وقد تملكه القلق ، فإن الشئ الذى تآلق لم يكن غير رأس

- "كأننا فى مدينة بومبى .. كان كل شئ كئيباً ، لزجا فقد الحياة بطريقة بشعة . ولكن كان الشئ الذى أثار قلقه أكثر من أى شئ آخر هو تلك المائدة المعدة كما لو أن قليلاً من الحب دخل الغرفة ولازال بها حتى الآن متحدياً الزمن .

خلع لوبين قبعته بحركة آلية ثم تقدم بضع خطوات وفحص الأرضية ، وكان يعلوها الغبار ولا تزال عليه آثار الأقدام .. لم يكن هناك سبيل للخطأ .. كانت آثار رجل وامرأة يسيران جنباً إلى جنب .. وفكر : جاك فيرانج وزوجته .. أرادا الاحتفال بذكرى أول لقاء لهما فأقبلا إلى الكوخ ، وهذا هو السبب فى أنهما لم يصطحبا ابنتهما معهما ، فقد كان العيد عيدهما ، ولم تكن النزهة فى الزورق إلا ذريعة .. أرادا أن يكونا وحدهما لاثالث لهما .. فحص راوول الأرض من جديد وقال :

- ولم يغادرا الكوخ .. هذا غريب !

كانت الآثار تتشابك من الباب حتى المائدة حتى الموقد ثم تمضى نحو غرفة أخرى تخفيها ستارة ، ولاريب أنها غرفة المطبخ .. ولكنها لم تعد منها فهل هناك باب آخر لمغادرة المطبخ ؟

وتقدم راوول وقلبه يخفق شيئاً ما .. مالذى يختفى خلف هذه الستارة ؟ .. وازاحها ، وفجأة ، تهربت الأرض تحت قدميه .. وكان الأمر سريعاً بحيث أن راوول لم يسعفه الوقت لكى يمد ذراعه ويبحث عن نقطة ارتكاز ، ووقع بشدة ، ولكن السقطة كانت قصيرة خففتها الرمال .. وكان باب الفخ قد عاد مكانه بتأثير زميرك خفى فى صوت مدو كالفخ حين يطبق على فريسته .



ولكنه لم يلبث أن استسلم للواقع ، فقد كانت الرمال مائعة وكانت تنساب فى الحفرة كلما ازدادت اتساعا ، وكان لابد من أن يرشها بالماء ولكن من أين له الماء ؟ ومع ذلك فقد بقى راوول على إصراره وراح يجمع الرمل بملء يديه ويلقيها بعيدا من فوق كتفيه .. وأفلح فى إحداث حفرة صغيرة ولكنه سرعان ماتوقف وقد نال منه الإعياء كل منال.. أحس فى الظلام أن هذه الحفرة عميقة جداً وتخبط وهو يبحث عن جاكته .. أين وضعها ؟ وتقدم وهو على ركبته ويده مبسوطة إلى الأمام وهو يخشى فى كل لحظة أن يمس الهيكلين .

وانتهى بأن عثر عليها أخيراً وأشعل مصباحه .. لم يكن عمق الحفرة ليزيد عن ستين أو سبعين سنتيمترا .. وقد اقتضت من هذه المسافة الهزيلة مدة طويلة وجهدا كبيرا .. ورأى أنه من غير أداة فى يده لن يستطيع شيئاً فقد كان هذا الرجل القوى يعرف أكثر من غيره أين يبدأ المستحيل .. وجفف جبينه وحاول أن يمزح "ليس هذا بالوقت المناسب لكى أصاب بالبرد .. آه .. من لى بكأس من الشراب ولكن الصمت كان مطبقاً بحيث لم يسعه إلا أن يرتجف .. وجلس معتمداً بظهره على الجدار وقد شل التعب جسده .. وشيئاً فشيئاً تولد الخوف .. ولأول مرة فى حياته لم ير ذهنه المتوقد الذى لم يخنه مرة واحدة فى حياته الحافلة بالمغامرات حلاً لمشكلته الحالية ، ولأول مرة فى حياته لم يعد لوبين بلوبين .

أى مجرم ذلك الذى ينازله ؟ ومن ذلك الذى دبر ذلك الانتقام البشع وحكم على بريئين بالموت جوعاً وعطشاً ويأساً .. ثم إنهما كانا اثنين ، يساند كل منهما الآخر حتى اللحظة الأخيرة فى حين أنه هو.. وحده ، لانصير معه .. وأرهف أذنيه .. كان هناك صوت اصم يدوى بعيداً .. صوت البحر .. كانت الأمواج تتلاطم فوق الشاطئ الصخري ولم يكن هناك أحد على الساحل .. لم يكن هناك غير الخوف حوله .. الخوف

ميت .. جمجمة بيضاء كعظمة سمك السبيرج التى يلقاها المرء على الساحل .. ومن طبقة الرمال الخفيفة التى تجمعت خمن راوول هيئة هيكل عظمى يعانق هيكلًا آخر، أقصر قامة من الأول جمجمته لاتزال تلتفت نحو وجه حبيب .. مات العاشقان أحدهما فى حضن الآخر ، وكل منهما يبتسم لصاحبه ابتسامة الأبد .

اطفاً راوول مصباحه .. هذا الرجل الذى واجه العديد من الأخطار وسخر من الموت، المرة بعد المرة أوشك أن يقع فريسة لانهييار عصبى .. أدرك فى لحظة واحدة الحقيقة التى يتوقعها .. فقد لقى جاك فيرانج وزوجته حتفهما قتلاً، بعد أن حول القاتل بكل صبر وكل دقة عش الغرام إلى فخ قاتل ، فإن فريسته كانا يأتیان إلى "الصخرة الكبرى" فى كل سنة ، ووجد كل وقته لإعداد الباب القلاب وهو على يقين من أنه فى اليوم المرتقب سوف يطبق على فريسته .. وقد نجحت مكيدته البشعة ، ولسوء الحظ جاءت الآن فريسة ثالثة ووقعت فى الفخ ، ولا مفر لها الآن من أن تشارك الفريستين السابقتين مصيرهما ، فما الجدوى الآن من الصياح والصراخ والاستنجاج ؟ وما جدواه من أن يفعل ماسبق أن فعله الزوجان من قبل عبثاً ؟

تمدد راوول فوق الرمال الرطبة وعقد يديه خلف عنقه وحاول أن يفكر فى هدوء .. لم يكن هناك من يعرف أنه قادم لزيارة هذا البيت ، وعليه قلن يخطر لأحد أن يهبط إلى هذا البلاج وأن يفحص المكان ويدخل البيت .. كانت هناك طبعاً السيارة التى تركها فى طريق الصخور ، وسوف تثير دهشة الناس ويذكرون أمرها للبوليس .. ولكن التحقيق لن يتعدى أكثر من ذلك ، ولا يبقى أمامه الآن إلا أن يحفر نفقاً ، ولكن بماذا ؟ بيديه ؟

خلع راوول ستترته وطواها بعناية وجثا بجوار الجدار وبدأ يحفر ،

بوعده بسبب بيت الصخور بلا شك .. وإذا كان قد حدث له حادث ..
إذا كان قد وقع .. لا بد وأن تمضى لنجدته .. سوف تغادر القصر
وتسرع إليه .. وسوف تقع بدورها في الفخ .. يا الهى ..

نهض راوول وراح يدور فى سجنه ورأسه ملتهبة .. كلا .. لا يجب
أن يقع هذا بالذات .. إنه يؤثر أن يموت .. كان يفضل طبعاً أن يلقى
حتفه تحت الشمس لغرض نبيل بدلاً من أن يحتضر كالفأر فى قاع
حفرة .. ولكنه سيتقبل الموت فى خزي كرجل عديم النفع .. المهم أن
تعيش لوسيل ..

وتملكه اليقين فجأة من أنها سوف تأتى لكى تبحث عنه .. وبسط
يديه إلى الأمام كأنه يريد أن يصدها ويردها بعيداً عن هذه الحفرة
البشعة حيث تنتظرها عظام أبويها .. وتعثر ووقع على ركبتيه ، وراح
يردد فى صوت خافت :

- ليس أنت لوسيل .. ليس أنت بالذات ..

غلبه التعب والقلق والليل فتهاك على جنبه .. وبقي مدة طويلة خائر
القوى .. وتغلب النعاس عليه أكثر من مرة .. وكان نعاساً تخللته
الكوابيس .. ثم ، ولأن اليأس وثبوت الهمة لا مكان لهما عنده خرج
فجأة من هذا الخدر الذى قام مقام النوم ، وصحاً وامتلاً نشاطاً ،
وتأهب لمواجهة الخطر .. ونظر إلى ساعته .. الثامنة .. لا بد أنها الثامنة
صباحاً .. يا للشيطان ! أن يفوتنى العشاء فلا بأس ولكن الإفطار ..
ليس هذا من الصحة فى شئ ..

وكان يتكلم فى صوت مرتفع ليفتعل قليلاً من الضجة ، ويقطع هذا
الصمت الكئيب الذى لا يمكن مقارنته بأى صمت آخر .. ولم يفكر فى
تجديد محاولته ولكنه بدافع التحدى حاول أن يقوم فى الظلام
بتمريناته الرياضية التى يقوم بها كل صباح وهو يقول :

المزوج بالهواء الذى يستنشقه .. إنه قوى وسوف يقاوم بضعة أيام ،
ولكن احتضاره سيطول ..

واستجمع قواه وهم بأن يصرخ .. ولكن الشئ الوحيد الذى أرغمه
على أن يحتفظ بهدوئه ووقاره هو احساسه السخيف بأن الهيكلين
ماههما إلا جمهور رغم كل شئ .. وتخيل انهما يراقبانه وأن كلا منهما
يقول للآخر "إن لوبين ليس شجاعاً ، إنه جبان خائف" وقال يحدث
نفسه "إنهما على حق فأنا جبان وقد بدأ الخوف يسيطر على ، ولكن
لو أن أمامى سبباً واحداً باعثاً للأمل فسوف يرى العالم أجمع ما يمكن
أن أقدم عليه .. ولكن لسوء الحظ ليس هناك أى أمل .. إنه الحادث
غير المتوقع الذى لامخرج منه .. معذرة يا عزيزتى لوسيل .. لن أكون
فى الموعد الذى ضربته لك .."

وفجأة عرته الدهشة .. إن الأمل موجود طبعاً .. وهو أمل ضعيف
فى الواقع .. لوسيل .. ولكنه سرعان ما أقصاها عن ذهنه .. ستتنتظره
لوسيل فى الساعة الثالثة، وربما تنتظره مدة طويلة ثم تعود أدراجها
حزينة .. لماذا تقطع هذه المسافة الكبيرة حتى الكوخ الذى يعيد إلى
ذاكرتها مثل هذه الذكريات الحزينة .. ولكن الأمل أشبه بنار صغيرة
تتغذى بأوراق الشجر ، وأضعف الأسباب تفلح فى إضرامه .. فأولاً
لم تكن المسافة كبيرة جداً ، وهناك دراجة فى القصر ، ثم إن لوسيل
سيدفعها الفضول إلى أن تعرف لماذا لم يواتها هذا الرجل الذى يبدو
أنه يخشى خطراً .. ولأن هذا الرجل قد أثار قلقها ، ولأنها تريد أن
تراه بأى ثمن فسوف تتوهم أشياء وسوف يستقر منها العزم وتفكر :

- إنه فى حاجة إلى .. إنه فى خطر بسببى أنا ، بسبب ما رويته له
عن موت أبوى .. وسوف تتذكر حديثهما والأسئلة التى ألقاها عليها
"عن الصخرة الكبيرة" .. وإذا كان هذا الصحفى الظريف لم يف

ولكنك تغفوا يا صديقي ، هيا انتبه وقم .. إنها هي الأخرى تقوم وتمضى لتقطف بعض الزهور .. إنها تشعر بقلق مبهم .. بسببك أنت ، لأنه بدا لك أنك تفهم كيف مات ابواها .. وهى تمضى وقتها الآن فى التفكير .. إنه يعرف شيئاً ، وتتنظر إلى الساعة فى غير انقطاع .

أضواء راوول مصباحه وأخرج ساعته .. وذهل . الظهر .. هكذا حالا .. أنها ستجلس الآن إلى المائدة مع عمها . إنها تجلس أمامه فى تلك الغرفة الكبيرة ، وهى لاتشعر بالجوع . رأها فى وضوح عجيب . كانت تدعك كرة من لباب العيش بيديها الرقيقتين ، وجاء أبولين بطبق من السمك لأن اليوم كان يوم الجمعة ورائحة القلى جعلته يشعر بأن قواه تخور .. أربع وعشرون ساعة لم يذق فيها شيئاً .. وكان يقول :

هيا ، جهد صغير آخر .. إن هذا السمك لذيذ ، ثم إنك بحاجة إلى أن تسترد قواك ، إذا كان ولا بد أن تستلقى الدراجة حتى هنا . كانوا يتناولون الطعام على مهل . وكان من وقت لآخر ، ينطق ببعض الكلمات .. ودقت ساعة الحائط تشير إلى الواحدة ، ساعة تناول القهوة .. كان حلق راوول جافاً .. كان يركز فى هذه اللعبة الرهيبة بكل كيانه وصعدت لوسيل غرفتها وراحت تصغى إلى أصوات القصر .. صوت محرك السيارة وهى تتطلق بعمها ، وبعد قليل ستهتم أبولين بغسل الأطباق .. الساعة الثانية .. الثانية والنصف !

تشنج راوول . وسوف يتقرر كل شئ الآن . لوسيل تخرج من القصر من غير أن يراها أحد ، وهى تخرج وتصل إلى المكان الذى تواعد معها فيه .. الساعة الثالثة .. أه يا لوسيل .. ركزى بدورك وفكرى معى .. فكرى فى بقوة أكثر .. إذا كنت لا أستطع موافاتك فذلك لأننى وقعت أسيراً .. أسير .. كان يجب أن يبعث بالكلمة مع الريح .. كما لو كانت برقية .. لو أنها استطاعت أن تتلقاها فإنها سوف تأتى .. أنا

.. فلأمت على الأقل وأنا فى صحة جيدة .

ثم رجع إلى الحفرة وجس الأرض .. كانت الرمال قد استعادت مكانها من الحفرة ولم تعد هذه الأخيرة غير فجوة خفيفة لاعمق لها .. لم تكن هناك فى الواقع أية وسيلة أو جنوى فى حفر نفق .. إن المنفذ الوحيد هو الباب القلاب ولا شئ آخر .. وعاد إلى الدائرة الجهنمية لنفس المشاريع ونفس الاخفاقات وفكر "والآن .. سأركز تفكيرى فى لوسيل .. ولكن ما أغبانى ! ما أدرانى أن هذه الصغيرة تحفل بى؟"

وجلس مرة أخرى وظهره إلى الجدار واسترسل فى مونولوجه : إذا كانت لاتحفل بى فذلك لأنك لاتفكر فيها بتركيز كبير .. ولكن مهما يكن فلا خيار لك . لا بد لك من أن تركز تفكيرك فيها وإلا فلا أمل لك ، ركز فيها واعلم أن الحشرات تعرف بعضها البعض من مسافات كبيرة ، وأنت أكثر من حشرة طبعاً ، فإذا أنت ثابتة وركزت مدة طويلة فسوف تحس بوجودك حولها ، وسوف تطيعك بحيث تحتل أفكارها تلقائياً .. مرها أن تأتى هنا وعندما تسمعها فسوف تصيح لكى تحذرها .. ليست هناك وسيلة أخرى ، ولكننى أحذرك .. سيكون الأمر صعباً جداً .. أقسم لى أنك لن تنام بعد الآن .

مد راوول ذراعه وأفلتت منه سبة ، ثم عكف على التركيز .. لم يكن ذلك صعباً جداً ، بل كان يكفيه أن يلازم لوسيل فى أفكاره وأن يتبعها فى غدواتها وروحاتها ، بين غرفتها وغرفة الطعام ، وأن يمسك المقعد المستطيل معها فى نفس اللحظة وأن يدعو بولوكس ، وأن يعبر غرف الطابق الأرضى الفسيحة لكى يمضى إلى البستان ويجلس فى الظل ويحلم فى ذلك الغريب الذى ظهر فى نفس اللحظة التى أصبحت فيها الحياة من الصعوبة بحيث لاتطاق .

ووخز راوول ظهر يده .. أهذا ما يقولون عنه تبادل الخواطر ..

مغمض العينين ، واستجمع كل قواه لكي يتمكن من تحليل الصوت الخافت الذي ربما كان صوت دمه وهو يصفر في عروقه . ولكن الصوت ازداد وضوحا وجلاء وجاء معه بالضوء وريح البحر ووعد الحياة كاصطدام بعيد لصخرة تعلن لعامل المنجم المدفون أن النجاة قريبة ، ولكنه كان يعلن على الخصوص انتصار راوول ، فهو وحده ، ضائع لاسند له ولامعين ، وبقوة ارادته فحسب ، أو ربما بكبريائه ، استطاع ، مرة أخرى أن يجبر القدر . وغمره إحساس عظيم بالفرح وتصاعدت الدموع إلى عينيه .. وهكذا ، بكى الرجل الشديد الثقة بنفسه .

وأرسل الباب صريرا وطققت الأرضية فوقه ، في هدوء .

وعندئذ صرخ بكل قوته ، رغم جفاف حلقه وصاح :

- أهذه أنت ياالوسيل ؟ .. هي أنت ، أليس كذلك ؟

ومن بعيد أجابه صوت الفتاة :

- نعم .

- حسن . لا تتحركى . أين أنت الآن بالتدقيق ؟

- أمام المنضدة .

يا للفتاة المسكينة ! كانت تنتظر إلى الأطباق وتحاول أن تفهم .

- هل ترين الستارة ياالوسيل ؟ إن الفخ خلفها مباشرة .. نعم ..

باب قلاب ينفتح إلى أسفل عندما تدوس عليه القدم .

- هل أنت مصاب ؟

ياالوسيل الرائعة ! كان صوتها ينطق بالقلق .. قلق كانت تجهل

معناه ولكن راوول اكتشفه وهو يرتجف .

ابتعدت الخطوات ، ولم يلبث أن سمع صوت أشياء تتحرك . وعرف

أسير .. أسير .. وتوتر جسده وراح يحرك شفثيه . كان يسمع الكلمة تندفع منه وشيئا فشيئا أحس بالوهن تفرغ من كل طاقته ، وجاءت اللحظة التي اضطر فيها أن يتوقف كالمصاب ينزف آخر قطرة من دمه . والآن ، على لوسيل أن تبادر بالعمل .. لم يعد لديه وقت لارشادها .. إما أن تكون في الطريق إليه الآن وإما فالموت هو الذي يقترب منه . ولكنها في الطريق إليه حتما لأن الأمور لايمكن أن تمر بغير ذلك .. لأن أرسين لوبين لم يخلق لكي يموت وهو كالدودة .. كان لابد من المقاومة .. المقاومة .. لاجدوى من النظر إلى الساعة ومن أن يتعجل الوقت . لابد له أن يمشى كالحصان العجوز الذي يدور حول الساقية دون أن يفكر في أى شئ .

وراح يمشى مكودا ، واهنا ، يغوص في الرمل وإحدى يديه على الحائط ، ويدور حول الهيكلين العظيمين . وجه كل إرادته إلى المشى . لو حدث لسوء الحظ ووقع فهو هالك لامحالة . لن يجد القوة لكي يصرخ عندما تأتى لوسيل وتتقدم نحو الفخ ، لأنه لم يشك لحظة واحدة في أنها سوف تأتى . ربما في اللحظة القادمة وإنما في اللحظة التالية لها . وراح يتنفس بقوة ويلوك الرمل الذي راح يصر تحت أسنانه وارتجفت ساقاه ووقع على إحدى ركبتيه ، وراح يدلكها مدة طويلة . ممنوع النظر إلى الساعة .. كان هذا أسوأ إغراء . أما الباقي .. الجوع والعطش فكان لايزال في مقدوره احتمالهما ، ولكنه إذا استسلم ونظر إلى الساعة ووجد أنها قد بلغت السادسة مثلا ، فسوف يتمدد عندئذ وينتظر النهار ، لأنه كان قد حسب ، دون أن يعترف ، الوقت اللازم للقدوم من يونرفيل بالدراجة . وبذل جهدا كبيرا وأجبر نفسه على الوقوف .

وسمع الصوت عندئذ فتجمد مكانه لفرط الذهول .. هذه الطقطقة معناها أن شخصا يطأ الحصى . ووضع يده على فمه مشدوها

وصيا عليها ، أما الآخر فما هو إلا مغفل ، وداعا .

وقالت لوسيل :

ماذا أفعل الآن ؟

- حسنا ، ارفعى السلم وأنزليه ببطء .

بعد ثلاث دقائق كان راوول يضع قدميه من جديد فى دنيا الأحياء ، ورفع السلم فانطبق الباب . وأمسك بيد لوسيل وقال :

- لنسرع بالخروج ، فإننا نختق هنا .

كانت الشمس لاتزال فى الأفق ، والبحر يهدر . ولم يكن هناك أحد على مرمى البصر . وقال :

- لولاك لقضى على . ولكننى اكتشفت شيئا هاما والفضل لك أنت .. قولى لى .. خلال الشهرين الأخيرين ، ألم يداخلك إحساس بأن هناك خطرا يحلق فوقك ألم يقع شئ يثير مخاوفك ؟

- كلا .. لا أرى .. ولكن هناك طبعاً حادثة المركبة ...

- آه ..

- ولكنه كان مجرد ، عجلة تحطمت فى أخدود وطرحت أرضا . لو أن الجواد كان مسرعا لكنت من الهالكين ، ولكنه كان يمشى خبياً على عكس عادته .

- ومتى حدث هذا ؟

- منذ ثلاثة شهور .. وأنت ترى أن .

- طبعاً .. لقد كان حادثاً مدبراً .. كغيره من الحوادث الأخرى ، وليس صدفة أن يختفى أصحاب القصر تباعاً ، وكان أبواك آخر الضحايا .. تشجعى بالوسيل .

أن عذابه أوشك أن ينتهى ، وعندئذ أقدم على شئ أثار دهشته هو بالذات ، فرغم تعبته وجوعه ، ورغم أنه كان مشرفاً على الموت منذ لحظات فقد نفذ الرمال عن ثيابه وأصلح من هدامه وعدل رباط رقبته وثنية بنطلونه "يجب أن أحافظ على مظهرى، وإن كنت بحاجة إلى أن أحلق ذقنى ، ولكن لا بأس بى تذكر أنك صحفى.."

وسمع ارتطام السلم بالمقاعد واحتكاكه بالأرض فصاح :

- هل أنت متأهبة ؟

- نعم .

وبالطريقة التى نطقت بها الكلمة كان من السهل أن يفهم أن الجهد الذى بذلته تجاوز طاقتها .

- هذا حسن . إنك قمت حتى الآن بأصعب جزء وبقي شئ بسيط .. ارفعى السلم من طرفه الذى من ناحيتك وادفعى الطرف الآخر كما لو أنك تريد أن ينزلق من تحت الستارة . سيقع طرف السلم فوق الباب القلاب ويدفعه إلى أسفل .. هل فهمت ما أعنيه ؟ هيا .. على مهل ، احتكت حافة السلم بالأرضية ، وفجأة انخفض الباب وتسلسل داخل الحفرة ضوء منحرف .

- توقفى الآن .. انتظرى قليلاً .

وانتهز راوول فرصة الضوء الخافت واقترب من الهيكلين وتمتم :
معدرة ، ولكن لن يزعجكما أحد بعد اليوم .

وأمال فوقهما الرمال بملء يديه حتى غطاهما تماماً وهو يقول :

- ذلك لى لاتراكما ، فارقدا فى هدوء . سوف أرهاها وأهتم بها ، وأعدكما بذلك . اننى أعرف فيم تفكران ولكنكما مخطئان سأرهاها أنويا كصديق حميم ، وسأحبها قليلاً كحبيب . ساكون منذ الآن

- كلا ، فقد تم الاتصال بينهما عن طريق نشرة في إحدى المجلات الأدبية .. كان مسيو ليونس كتارا يبحث عن وظيفة .

- هل تذكرين عنوان هذا السيد ؟

- نعم ، فأنا التي حررت المكاتبات .. ليونس كتارا، ١٢ شارع باتنيول بباريس .

ومتى يجب أن يصل ؟

- يوم الثلاثاء .

تأبط لوبين ذراع الفتاة وسار معها في طريق الصخور ، وقال :

- حسناً . سوف أدبر طريقة للدفاع بمعاونة هذا الشاب فإننى أؤمن أنه ظريف وأنه سيتعاون معنا .

لن تقع أية حوادث بعد الآن .. أعدك بذلك .

قالت لوسيل فجأة في شئ من التردد :

- ولكن من أنت بالذات ؟

انفجر راوول ضاحكا وأجاب :

- تروق كلمة "بالذات" هذه .. تصورى ياعزيزتى لوسيل إننى نفسى لا أعرف من أنا . إن الصحفى رجل له مائة وجه ، ولا بد له من ذلك إذا أراد أن ينجح فى هذه المهمة الصعبة . إننى أجىء وأروح وأنقب وأنتكر وأضيع قليلاً فى كل هذه المتاهات .. ولكى أكون صريحا معك ، فإننى أشعر أننى سأقمص جلد هذا اللويس كتارا رغما عنى ، لاشئ إلا لمحاكاته وللسعادة التى سأشعر بها وأنا أقيم بجوارك .

اصطبغ وجه لوسيل بطريقة طابت لراوول وتمتعت تقول :

- أنت محظوظ .. لأنك حر .. لا يجب أن تقدم حسابا لأحد عما فعلت

توترت يد الفتاة على يده وتمتعت :

- إنهما هنا ؟ .. أليس كذلك ؟

- نعم . كان القاتل يعرف أنهما يأتیان كل سنة فى الذكرى السنوية لأول لقاء لهما . وقد أعد الفخ بعناية ومهارة كبيرين ومن الذى لا يصدق أنهما غرقا .. والدور الآن دورك أنت .

تعلقت لوسيل بذراع راوول وقالت :

- ولكن هذا شئ فظيع .

واستطرد راوول :

- وبعد أن يتخلص منك سيعتدى على عمك بدون شك .. دائماً بنفس الدهاء ونفس المصير حتى لايشك أحد فى الحقيقة . أنتم جميعا فى خطر كما كنت أتوقع .

- ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ نحن لم נוذ أحدا .

فكر راوول لحظة ثم قال :

- لو أستطيع الإقامة فى القصر، فى جواركم ، فسوف أعرف السبب سريعا .

قالت لوسيل :

- لبيتك أتيت قبل اليوم بثمانية أيام، فلعلك لاتعرف أنه يوجد بالقصر مكتبة كبيرة جدا ، بل إن لها شهرة بين الأوساط الأدبية ، ولقد لحق عمى بخدمته فى الأسبوع الماضى سكرتير لكى ينسق ويبوب كل تلك الكتب ويضع لها فهرسا .. ضفوة القول سيأتى بعد أربعة أيام .

صاح راوول : ولكن هذا رائع . وهل يعرف عمك هذا الرجل هل

التقيا قبل اليوم ؟

يعمل فى خدمة رجل آخر خفى خلىق بأسوأ الفظائع ولكنه لا يتمتع
بذكاء خارق والدليل على ذلك حوادث يونترفيل ومغالاته فى العذاب
الذى فرضه على جاك فيرانج وزوجته ، فقد كان هذا ينم عن ذكاء غير
عادى ، قاس لايرحم وصبر عجيب .. صبر العنكبوت وهو يعد خيوطه
والثعبان وهو يتربق فريسته وحيوانات الليل التى تضرب دون ما
صوت ، بمجرد أن تتخلى فريستهم عن يقظتها وحذرهما . وإذا لم
يحترس هو نفسه فسوف يتلقى الضربة . إن لم يكن فى شخصه هو
فسوف يتلقاها بلا أدنى شك فى أعز الناس لديه .. فى لوسيل .

وزمجر يقول يحذر العدو الخفى :

- إياك أن تلمسها .. أنا ، لابس بي ، فإننى أستطيع أن أدبر أمرى
دائماً ، أما هى .. لو أصابها شئ فلن يمنعنى أى شئ بعد ذلك ..
ودفعه غضبه الوليد إلى أن يترك العنان لسيارته فاندفعت فى الطريق
كحجر المنجنيق . وبلغ باريس فى نحو الواحدة صباحاً ومضى إلى
مسكنه ببوليفار بيرير وأسرع إلى الحمام ، وبعد أن اغتسل تناول
وجبة أخيرة ثم أوى إلى فراشه وهو يقول :

- أرقدى فى هدوء يا عزيزتى لوسيل . إن ملاكك الحارس ليس
بعيداً .. سيخلد إلى الراحة بدوره ، فلا بد للملائكة من النوم من وقت
لآخر .

•••

وفى أصيل اليوم التالى ، وبعد إن تناول ليونس كتارا غذاءه
المتواضع ، غادر المطعم المتوسط الذى يتناول فيه طعامه فى العادة ،
وراح يفكر فى حزن وهو يمسح شاربه فى الوجبات المتواضعة التى
لا بد له أن يتناولها طوال حياته التى تخلو من البهجة . وكان متجهما
وهو يعبر الشارع ليشتري جريدته ، وسمع صريرا حادا صادرا من

فى يومك ، يخيل لى أننى لن أشعر بالمرض أبدا إذا كانت لى القدرة
أنا أيضاً فى أن أكون . ولكننى أنطق بحماقات .

- حماقات ! أبدا أنت لم تكونى عاقلة قط كما أنت اليوم .. إن
الإحساس بالملل هو الذى يضمنك ويؤرقك يا عزيزتى لوسيل ولكنك لن
تشعري بالملل ولا الضجر وأنا بجوارك ، وأقسم لك على ذلك .. فكرى
فى مغامرة اليوم .

توقفت لوسيل عند أول منعطف للطريق والتفتت إلى الكوخ الذى
أوشك أن يختفى عن الأنظار .. ووضع راوول يده فى رفق كبير على
عينها وقال :

- لا يجب أن تنظري إلى الخلف أيتها العزيزة ، إن أبويك يرقدان
فى القبر الذى كانا يتمنيانه .. ثم لا يجب أن يعرف العدو أننا اكتشفنا
شيئا .. هيا ، تعالى . سأوصلك إلى مداخل يونترفيل .

ومضى فجاء بسيارته ووضع الدراجة بداخلها ثم أجلس لوسيل
بجواره . وسألته : هل انتابك الخوف ؟
- كنت على يقين من أنك ستأتين .

- وإذا كنت لم أت ؟

- أنا الذى ألقى الأسئلة .. إننى لا أستجيب لها أبدا .

انطلق راوول عائداً إلى باريس ، وطبقا لعادته ، كان يلتهم الطريق
التهاما .. تلاشى تعبته وارهاقه تقريبا ، فبعد أن غادر لوسيل عرج على
حانة وتناول شطيرة بالجبن وشطيرة بالتفاح وثلاثة فناجين من
القهوة ، ودب النشاط فى جسمه وأحس بالسعادة . لم يكن هناك ما
يعكره غير شئ واحد هو البارون أو بالأحرى سر البارون ، لأنه كان
هناك خلف البارون شخص آخر يعمل . لم يكن البارون غير عميل

المرض ينضو عنه ثيابه بالقوة .

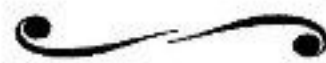
وفى أثناء ذلك ، دخل صاحب السيارة مكتب الطبيب ورفع نظارته عن عينيه وأخذ مقعدا وقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة :

- احتفظ لى به يا صديقى .. ضعه فى الجبس لمدة ثلاثة أسابيع .. رعاية تامة وخدمة ممتازة .. شمبانيا ودجاج وكل ما يريد .. وكذلك كل ما لا يريد .. لا ترفض له أى طلب . ولكن بما أنه فقير وبما أن فقره سيمنعه من أن يتمنى أى شئ فحاول أنت أن تتمنى مكانه .

وفتح محفظته وأخرج منها رزمتين من الأوراق المالية ألقاها فوق المكتب وهو يقول :

- هذه من أجل معدات الأشعة الجديدة .. وهذه لمريضك بعد أن يشفى من طرف السائق الذى أصابه .. سيكون من الغباء بحيث يتردد كثيرا ، ولكنه سوف يقبل فى النهاية .

ونفض ثم انحنى وأردف يقول فى صوت خافت : آه .. كدت أنسى أهم شئ .. أنه سيكتب خطابا للسيد هوبير فيرانج بقصر يونرفيل .. هذا الخطاب لا يجب أن يصل .. تذكر جيدا .. قصر يونرفيل .. عليك أن تلقى به فى النار .



فرامل مضغوطة بشدة جعلت القشعريرة تجرى فى جسده ، وتوقفت عربة فارغة أمامه وكادت أن تلمسه . وارتجف وفقد توازنه ووقع على ركبتيه . وتحامل واقفا وهو يستند على الرادياتير الملتهب . وكان السائق قد هبط مسرعا وعاونه على الوقوف وهو يقول :

- أنا أسف .

- تتمم كتارا :

- أنا المخطئ ، فقد كنت شاردا الذهن .

- معذرة .. بل أنا الذى كنت مسرعا .

- مهما يكن قلم أصب بأى شئ .

- ولكننى لست متأكداً ...

- هانت ترى .. لست مصابا بأى جرح .

- هناك الجروح الداخلية ، وهى أشد خطرا ، تعال معى .

- أين ؟

- عند طبيبى .. أريد أن أطمئن تماما .

ودفع الرجل كتارا المسكين داخل سيارته رغم احتجاجاته الخجلة ، وأبدى السائق نحوه اهتماما شديدا ورعاية أكبر ، ولكن كل هذا لم يمنعه من أن يسوق بجرأة وسرعة مما جعل السكرتير المسكين يرتجف رعبا وقلقا . وبلغا نويلى فى طرفة عين وتوقفت السيارة وهى تتن أمام احتجاجاته .

- ليس بى شئ .. يؤسفنى أن أتسبب فى كل هذا الضرر .. أنت رجل كريم جداً .

ووجد نفسه فى غرفة نورها خافت وفيها أجهزة معقدة ، وراح

وكان اهتمام الناس كبيراً حقاً . وقال الماكرون منهم : أن الجرائد تعمل على أن ننسى تسليح ألمانيا . وقال بعض الملمين بالأمور أكثر من غيرهم "مسكين جانيمار . ما أن يقع على معضلة صعبة حتى يتهم لوبين" . ولكن الفضوليين العاديين اهتزوا طرباً وهم يقولون : سوف نضحك قليلاً .. وقد كانوا في حاجة إلى ذلك حقاً . وانتقلت من فم إلى فم خلال البلد همسة كبيرة تقول :

- أرسين لوبين لم يمت .. أرسين لوبين يعود .

دعك راوول دابنيك الجريدة بين يديه وألقاها أسفل فراشه .. المفتش العام جانيمار يتتبع أثراً هاماً .. ماذا ؟ أيكون قد اكتشف أمر البارون هكذا حالاً ؟ محال . لقد اقتضى الأمر مني أنا لوبين ، ربع ساعة .. وكنت أملك عناصر لا يملكها هو .. لا بد له من ستة شهور على الأقل .. هذا إذا خدمه الحظ . كلا ، كلا . إنه ويحاول أن يجتذب الأنظار إليه .. وهذه حيلة لاتنطلي على .

ولكنه كان مكتئب المزاج عندما دق الجرس يستدعي خادمه وكان مكتئب المزاج وهو يأكل . وعندما أشعل أحد سجائره الهولندية المصنوعة خصيصاً من أجله لم يكن قد استعاد مرحه وحيويته المعروفين عنه .. لم يكن يريد أن يدس البوليس أنفه في مشكلة يونرفيل ، فقد كان كفيلاً بأن يفك رموزها وحده .. أما البارون فلا شأن له بهذه المشكلة هو الآخر ، فإن الصيد صيده هو ولا يجب أن يتدخل فيه أحد غيره ، ولهذا عزم على أن يكتب لجريدة ايكودي فرانس ، فإن الكلمة التي ذكرها جانيمار جرحت كبرياءه .. رجل نسيناه بعض الشيء .. أه ، كيف يتكلم بهذه اللهجة .. حسنا سوف يرى .. رجل نسيناه بعض الشيء .. ما هذه الوقاحة .. لقد حدث نفسه أكثر من مرة فقال "ساكون في القصر بجوارها ، بعد ثلاثة أيام ، ولا

الأختطاف

أثار الخبر الذي نشرته جريدة "ايكودي فرانس" أكبر الاهتمام . كانت الأجازات على الأبواب والجرائد تعاني كساداً لقلّة الأخبار التي تهتم الناس ، وعلى الرغم من التوتر السياسي ، وعلى الرغم من الأنباء التي تقول أن ألمانيا تتسلح من جديد والتي يتناقلها الناس في كل مكان من أوروبا تقريباً ، فلم يكن في استطاعة الصحفيين إرضاء قرائهم لأن الأخبار كانت عادية ولا أهمية لها ، ولهذا كان امتنانهم كبيراً نحو جاستون سيرول قبل تشييع جنازته ، فنشروا مراحل حياته الغامضة وامتدحوا فضائله المتواضعة وأكدوا أن رجال البوليس سوف ينتقمون لمقتله ..

وقد كتبت الجريدة تقول :

- "المفتش جانيمار يتتبع أثراً هاماً وقد التقينا به في أحد المرات بإدارة البوليس وقال لمراسلنا رداً على أسئلته إنه سيكون هناك جديد بعد ثمان وأربعين ساعة ، وأردف يقول بطريقة غامضة : ربما نتحدث عن رجل نسيناه بعض الشيء ، ويعتقد البعض منا أنه مات ، ولكنني أضعه نصب عيني ولما سأله مراسلنا إن كان يريد أن يتكلم عن أرسين لوبين ، عدوه اللدود السابق ، واكتفى بأن رفع أصبعاً إلى فمه وقال :

- من يدري

أنا راوول دابنيك .. أنا هو .. أعنى ذلك الشخص الذى أوشكت أن تنساه .. ولكن اضحك وابتهج أيها الصديق العزيز .. أنك كسبت المعركة ، ولك أن تمرح وأن يأخذك الطرب ولو مرة فى حياتك . وهزه المرح واستطرد يقول مثيراً دهشة رجال البوليس الذين أحاطوا به .

- آه .. لن أنسى لك هذا أيها العزيز جانيمار .. تأتى هكذا خلف ظهري وتستنجد بثلاثة رجال لأنك لست مطمئناً إلى نفسك .. وتستخدم الوسائل الكبيرة والصوت الخطير : راوول دابنيك .. إننى ألقى القبض عليك .. وعندئذ يلتفت السيد دابنيك ويستولى عليه الخوف .. وأخيراً ها هو دابنيك .. إنه هو نفسه لوبين .. أمسكوه انتم الآخرون .. أسرعوا وأسندوه .. ألا ترون أنه سيغمى عليه .. إنه لم يعد شاباً كما تعرف وقد تسببت له فى الكثير من المشاكل والانفعالات .. ماذا ؟ الاصغاء ؟ لى أنا ؟ ولكننى لا أطلب إلا أن أتبعك .. كنت أقول لنفسى بالذات يجب أن أثبت مقدرة هذا المسكين جانيمار ، فسوف يعينه ذلك على الترقية .. هل تسمح لى أن أجفف عينى ؟ ليس الذنب ذنبى إذا كنت أبكى لفرط الضحك .. آه .. هناك سيارة أجرة تتبعنا .. إنها تتبعنا ، أليس كذلك . إن هذا الذكى جانيمار يفكر فى كل شئ .. لكم أن تستمتعوا أيها السادة .. حسناً ، تفضلوا .. بعدكم .. كلا هذا صحيح فأنا ضيفكم .. أيها السائق ، إلى إدارة البوليس .

زمجر جانيمار :

- أيها الوغد .. سوف تتخلى عن عجرتك هذه بعد قليل .. سوف أعلمك أنا كيف تقتل أمناً بالمكتبات .

- لأنك تتصور أننى .. آه .. هذا غريب جداً .. ولديك دليل طبعاً ..

يمكن أن يكون الأمر غير ذلك .

ولكن اليوم كان رديئاً ، من تلك الأيام المكفهرة التى يسوء فيها كل شئ حيث ماء الدش ساخن أكثر من اللازم ، وحيث تضيع أضرار القميص وحيث تعكس لك المرأة وجهها تعلوه تعضات المشيب .

لبس راوول قبعة خفيفة وأخذ العصا التى يأخذها معه عندما يخرج للنزهة وخرج . سوف يجد حرিতে فى الخارج أكثر لكى يكتب ردا لاذعا للسيد جانيمار .. ويمم نحو الغاب .. والواقع أن ذلك الغبى العجوز كان على حق ، فمنذ شهور والشعب محروم من تلك المقالات المرححة الطريفة التى طالما خدمت أسطورة أرسين لوبين .. وحدث راوول نفسه فقال إننى كنت أعلن عن مغامراتى مسبقاً فى الماضى وأعلق عليها .. صفوة القول ، كنت الهوما أشياء .. ولعمري لقد كنت شاباً .. ولكن الزمان كان يتلاءم مع ذلك .. كان الناس أكثر مرحاً يجب أن أهتدى إلى الوسيلة لتجديد إحدى هذه المغامرات التى تثير إعجاب الناس ودهشتهم .

كان غارقاً فى تأملاته هذه بحيث لم يبد أى اهتمام للرجلين اللذين يسيران خلفه واللذين راحا يقتربان منه شيئاً فشيئاً .. وفجأة أحاطاه من جانبيه ، وتوقف راوول وهو يقول : آه .. ما هذا ؟

وظهر أمامه رجل ثالث ، وانضم إليهم رجل رابع ضغط على ظهر راوول بماسورة مسدسه قائلاً :

- لاتقاوم ياراوول دابنيك .. إننى ألقى القبض عليك باسم القانون .

تم كل هذا بسرعة مذهلة تتفق تماماً مع مشاغل راوول بحيث إنه انفجر بالضحك وقد استعاد مرجه وقال :

- حسناً يا جانيمار .. ولكن لماذا هذه التكبيرة البغيضة .. نعم ..

أنت يامسيو دابنيك .

- كيف ؟

أقول لك أن بصماتك التي أخذناها أمس هي نفس البصمات التي
رفعناها عن المسدس .. وهذا يعني أنك أنت القاتل دون أى نزاع .

- ترانى شديد الجزع لذلك .

- عفواً ؟

- من ناحية ، أنت متأكد إننى لست راوول دابنيك .

- طبعاً .

- ومن ناحية أخرى لا تتردد فى إتهامى بارتكاب جريمة قتل ؟

- طبعاً .

- إذن فأنا لا أدري أين أنا بالذات ، لأننى أقسم لك أننى لم أقتل

أحد ، فبصفتى لوبين فإن يدي ملوثتين بالدماء ، ولهذا فإننى أتساءل
إذا لم أكن لوبين .

صاح القاضى :

- لا أسمح لك بالمزاح .

قال راوول متساهلاً :

مهلاً .. إننى معك فى هذين الدليلين المثيرين للقلق ، ولكن شيئاً من

اثنين ، إما أن أكون لوبين أو لا أكون لوبين .. هل أنت معى فإذا كنت

لوبين فأنت تعلم طبعاً أنك لا تستطيع احتجازى فى السجن .. اتفقنا

؟ غدا سأكون هربت اذن .. ولكن إذا هربت فسوف يكون ذلك دليلاً

على أننى لوبين بالطبع .. ولما كان لوبين لا يقتل فسوف أثبت براعتى

.. وهذا الاستدلال يبدو معقداً بعض الشيء طبعاً ، وأرى ياسيدى

أعنى دليلاً أكيدا قاطعاً ، لايقبل الجدل .

- ليس لدى دليل واحد .. وإنما دليان .

عرف راوول هذين الدليلين فى اليوم التالى عندما مثل أمام قاضى
التحقيق فورميرى .. كان قد استجم تماماً ، وعاد يشعر كأنه صغر
عشر سنوات .. ولهذا خضع للاستجواب عن طيب خاطر .. ولكنه
وضع موقفه على الفور بأن قال :

- لن نتكلم عن أرسين لوبين فالمعروف أن بصماته اختفت من
أرشيف البوليس القضائى منذ وقت طويل ، ولهذا لا يحق لأحد أن
يزعم أننى لوبين خاصة وأن المقارنة تطربنى كل الاطراء .

- ولكن المفتش العام جانيمار ..

- إذا أردت الحقيقة ياسيدى القاضى فإنه يخرف .. إن لوبين مات
والجميع يعرفون ذلك .

- ليكن .. أه .. أريد أن أقول .. لنفرض أنك لست لوبين فإن هذا لا
يمنع أنك قتلت ذلك الرجل التعس .. أمين المكتبة .. فمعى ، أولاً ،
خطاب توصية ممهور بتوقيع جابرييل تابارو ويوصى فيه براوول
دابنيك لسكرتير شركة نورمانديا للتاريخ والآثار ، ولست بحاجة إلى
أن أقول لك أن جابرييل تابارو عضو المجمع والضابط بفرقة الشرف
لم يكتب هذا الخطاب إطلاقاً .

- ولكن ..

- انتظر .. وهناك أيضاً سلاح الجريمة .. عثر البوليس على مسدس
القاتل بجوار الجثة وتنقصه رصاصة ، وهى نفس الرصاصة التى
استخرجت من جثة جاستون سيروول .. وتقرير الخبراء فى هذه الناحية
أكيد ثم إن مقبض المسدس عليه بصمات واضحة .. وهى بصماتك

- إننى اختار الأستاذ هنرى بورناد محاميا لى .

بعد ساعة من ذلك ، وفى زنزانتة بسجن السانتيه ، كان لديه كل الوقت للتفكير .. وكان لابد له من أن يعترف مرة أخرى بأن الموقف لم يكن جميلاً ، فإن العدو أدار اللعبة بكل حذق وعرف كيف يستغل أقل الهفوات .. وكانت الهفوة الأولى إمساكه بالمسدس فى بيت البارون ، فقد كان الخادم يلبس قفازا ، وكان المقبض قد مسح تماما وأزيل ما كان عليه من بصمات ، فهل كان الأمر مدبرا ؟

أم أنهم استغلوا الموقف فحسب ؟ صفوة القول ، سرقوا بصماته بطريقة ما .. كان العدو بعيد النظر ، ويتصرف بدهاء كبير .. أما الهفوة الثانية فهى احتفاظه بالخطاب الممهور بتوقيع تابارو بدلا من اتلافه ، ولم يكن أمام البارون إلا أن يلتقطه فى الليلة التى استولى فيها على المذكرات وفتش جيوب راوول ، وقد عاد بعد ذلك إلى مكان الجريمة ، ولم تكن قد اكتشفت بعد، ووضع هناك الخطاب والمسدس ، وبذلك تم توقيع لوبين على الجريمة ، ولم يكن على البوليس إلا أن يقوم بالباقي ، وهكذا غلب لوبين بأسلحته هو بالذات وأبعد عن ساحة المعركة وأصبح مضطرا إلى اللجوء للحلول اليائسة .. وكان يتعين أن يتقدم بعد يومين إلى قصر يونرفيل متقمصا شخصية ليونس كتارا .. وإذا تهرب الأستاذ بورناد فسوف يضيع كل شئ .

ولكن لوبين لم يكن يمقت الإحساس بالهزيمة ، فأخرج من بطاقة جاكته ورقة وقلم صغيرا أفلتا من التفتيش وبدأ يكتب خطابا لجريدة ايكوى فرانس :

مرة أخرى أتقلب ضجرا وسأما فوق فراش من القش الرطب بالسجن أستمد من براعتى القوة لكى أعلن سخطى للملا ، فهم يتهموننى ، أنا ، أرسين لوبين بأنى قتلت ذلك المسكين جاستون سيرول

القاضى أنك تشعر كأنك تائه .

صاح فورميرى :

- كفى .

- حسنا .. حسنا .. لا داعى للغضب .

- أه ، ليس لدى الآن أى شك .. أنت لوبين طبعاً .

- فى هذه الحالة يؤسفنى أن أودعك بعد قليل .

- هذا ما سوف نراه .

- إذا بقيت فى السجن فلن أكون إلا راوول دابنيك عندئذ .

كان القاضى يكاد يستشيط غضبا فى حين كان راوول يبتسم وكان الكاتب يصفى فاغرا فمه .. وصقل راوول ثنية بنطلونه وعقد يديه على ركبتيه وقال :

- سيدى القاضى ، أرجوك أن تصغى إلى .. مهما يكن فأنا هنا لمساعدة العدالة ، وفى هذه اللحظة ، مع هذا الإيقاف المضحك فإنك تحول بينى وبين اللحاق بالقاتل الحقيقى ومن تسليمه لك .. ليس لدى الوقت للبقاء فى السجن ، أفلا تريد إطلاق سراحى حقا ؟

قال مسيو فورميرى وهو يكاد يختنق :

- أعيده إلى السجن .

- دقيقة واحدة .. أنت تعلم تماما أننى اتخذت احتياطاتى ياسيدى القاضى ، ولهذا يجب أن أخطر .. إننى أعددت فرارى مسبقاً ، وعليك أن تفكر فى الأمر اذن ..

وكان الحراس قد أمسكوه من كتفيه فتخلص منهم بهزة واحدة وقال :

السيد راوول دابنيك ، المشتبه في أنه أرسين لوبين قد اختفى من السجن بطريقة غامضة ولم تزد مدة سجنه عن ثمان وأربعين ساعة .. ووجدوا مكانه محاميه الأستاذ هنرى بورناد ، فاقد الرشد وعاجزا عن تفسير ما حدث له .

وساد الجنون والانفعال ، ونسى الناس كل شئ . نسوا التوتر الدولى ومغامرات أوائل الطيارين وفضيحة كايو.. أه .. كانوا يعرفون وسائل لوبين عندما يتحدى ، ومرحه الساخر وحيله العديدة وخيالة الواسع الخصب . ولكن كيف تمكن من ذلك ، وما هى التواطؤات التى ضمها إلى صفه فى مثل هذه المدة الوجيزة ، وبأية معجزة استطاع أن يتغلب على الرقابة الفعالة التى يخضع لها .. وقد شرح لوبين لى بعد ذلك بمدة طويلة، وبعد موت الأستاذ بورناد وطريقة فراره العجيب ومازلت اسمعه وهو يقول :

كان يتعذر على أن اكشف الحقيقة عندئذ .. ومهما يكن فأنا كالحواة لا أحب أن أكشف عن الاعيبى ، وكان ذلك الدور من الحماسة والبساطة بحيث يحمر وجهى خجلا وأنا أتحدث عنه .

وخيل لى أن وجهه يضطرم بالانفعال وهو يقول ذلك ، مبتسما ابتسامته الساخرة المعروفة عنه ، وانحنى نحوى بطريقة صبيانية وربت بيده على ركبتى فى رفق وهو يقول :

- لا تقل لى أنك لن تفهم .. كنت قد أعددت العدة لهذا الفرار منذ وقت طويل ، بدافع الحرص لاغير .. وقد حذرت ذلك القاضى المتزمت .. كنت قد أعددت فرارى مسبقا ، تماما كما يعد المرء مبلغا من المال ويخبئه مسبقا لى يواجه به كل الاحتمالات . وأنا مضطر أن أتوقع كل شئ ، حتى حماقات البوليس ، ولهذا فإن الأستاذ بورناد كان يعرف ما يتعين عليه أن يفعل بمجرد أن أطلب مساعدته .

وكأنتى وقد طوانى الموت منذ سنوات لم أعد شبحا لايسطيع إيذاء أحد .. ولكن المفتش العام جانيمار ، فى عجزه عن القبض على الجناة الحقيقيين لا يتورع عن اعتقال الأشباح ، ولهذا السبب ، وعلى الرغم من نفورى من استغلال امتيازاتى كشبح أرانى مضطرا لاختراق الجدران والعودة من العالم الآخر للانقضاض على القاتل وارغامه على الاعتراف بارتكابه جريمته .. ولن أتأخر عن إطلاع الجمهور بنجاح خطتى .

عفريت أرسين لوبين

وعندما حان موعد تناول العشاء دس راوول الخطاب فى يد أول حارس التقى به ومعه ورقة مالية كبيرة ، وأسرع الحارس فأخفى الخطاب والورقة فى جيبه ، وكان راوول قد استخدم هذه الطريقة فى ظروف أخرى مماثلة ولكنه فى هذه المرة اعتمد على ارتشاء الرجل وربح ، وكان أن ضج العالم فى صباح اليوم التالى بالضحك .

كان الناس يتخاطفون الجريدة فى الشارع، وراح الجميع يتخاطبون دون أن تكون بينهم سابق معرفة ويهتئون بعضهم البعض .. إنه هو حقاً .. كانوا يشتبهون بالأمس فى أنه على قيد الحياة .. سوف يغير هذا الكثير من الأمور .. وتألقت العيون فى إنفعال يعبر بسذاجة عن فرحة الناس ، فقد عاد المغامر ذو الابتسامة الساخرة ، وأصبحت الحياة اليومية بما فيها من صخب وشقاء أكثر احتمالا، فقد كان هناك رجل بعيد المنال وفائق المقدرة يضع مواهبه الفذة العديدة وذكاءه الخارق ومقدرته العجيبة فى خدمة العدالة .. وعلى الفور بدأت المراهنات ، فى المصانع ، وفى الترام وفى الحانات وحتى فى الأوساط البورجوازية .. سوف يهرب .. لن يهرب .. ولم يجدوا الوقت للجدال والنقاش لأن بيانا وجيزاً عرفوا منه فى نفس المساء أن

- أنا ليونس كتارا .

قال أشيل فى شىء من التوتير :

- أتيت من المحطة سيرا على الأقدام ؟ كان فى مقدورى أن أتى لاصطحابك .. اتبعنى أيها السيد .. إنهم فى انتظارك فى غرفة المكتبة .. أعطنى حقيبتك .

ورافق السكرتير حتى القصر وتركه مع مسيو فيرانج .. وتأمل هذا الأخير الوافد الجديد فى شىء من التسامح المتعجرف ثم قال :

- هل تعرف ما أنتظره منك يامسيو كتارا ؟ لاريب أن ابنة أختى قد ذكرت لك .. هل أنت على دراية بمثل هذا العمل ؟

- أظن ذلك .. نعم أه ، أخيرا ، إنه ليس بالعمل الصعب .

- أريد فهرسا أبجديا بأسماء المؤلفين وآخر بعناوين الكتب .

- طبعا .. لعل ذلك .. معذرة .. سوف يقتضى هذا العمل مدة طويلة .

- لا أهمية لهذا .. أنت هنا فى بيتك يامسيو كتارا .. وقتى لايسمح بأن أريك القصر لأنه لايدلى من أن أمضى إلى المصنع ، ولكن ابنة أختى سيسرها أن ترافقك .. لوسيل ، هل لك أن تأتى لحظة ؟

ظهرت الفتاة قادمة من الصالون ، وما أن رأت السكرتير حتى بانث عليها أمارات خيبة الأمل .. وبسطت له يدا رخوة فى حين قام العم بالتقديمات .

- حسناً .. سأنصرف الآن يامسيو كتارا ، وستمضى بك لوسيل إلى غرفتك .

وودعه مسيو فيرانج بتحية جافة .. وقالت لوسيل :

- تفضل ، من هنا .

واضطجع لوبين فى مقعده إلى الوراء يضحك تلك الضحكة الساخرة الرنانة بحيث طاب لى الاستماع إليها ، واستطرد يقول وصوته يتهدج مرحا :

- ما كان المسكين بورناد ليرفض طلبا .. ولكن هذه قصة أخرى لقد أطلق بناء على تعليماتى شاربا كثا ولحية طويلة ملساء ، وهى من الأدوات التى تصلح للتنكر .. ولعل ذلك كان مزعجا ومضايقا له ولكنه كان ضرورياً لى وقد دخل زنزانتى فى ذلك الصباح مرتديا معطفا واقيا من المطر ، لأن الدنيا كانت تمطر ، ويرخى قبعته فوق عينيه .. وبعد نصف ساعة رأى الحراس رجلا ينصرف له شارب ولحية ويرخى قبعته فوق عينيه ويرتدى معطفا واقياً من المطر ، ولم يخالجهم الشك لحظة واحدة فى أن ذلك الرجل هو خادمك الذى يحدثك الآن ، فقد جاءه بورناد ببعض الشعور المستعارة وهكذا نجحت الخطة - وهو ؟

- حسنا ، قبل أن أنصرف لكمته فى رفق تحت ذقنه ، وكان هذا أمرا متفقا عليه من قبل ، فما كان يجب لأحد أن يحسبه شريكا لى ، ولهذا السبب لازال جانيمار يتساعل حتى اليوم كيف استطعت أن أتتكر .

وانصرف لوبين بعد ذلك ، وكان لايدلى من الانتظار سنوات طويلة قبل أن أراه ثانية .

•••

فى اليوم التالى لفرار لوبين تقدم رجل هزيل البنية ضيق الكتفين يرتدى جاكته براقه فضفاضة ويضع على عينيه عوينات نحو الباب الحديدى لقصر يونرفيل .. وكان أشيل هو الذى فتح له وخاطبه الرجل فى شىء من الخجل :

ذهلت الفتاة ولم تدر ماذا تقول أو ماذا تفعل.. هل يجب أن تضحك أو أن تغضب .. وعقدت يديها على صدرها وراحت تتأمل في فزع ذلك الوافد الجديد الذى ظهر هكذا فجأة ردا على نداءها الصامت كما يظهر الأمير فى إحدى قصص الحوريات . وقال الصحفى :

- أه ، حسنا .. ألم أعذك بأننى سأعود .

بدا لى أنه أدعى إلى الحرص أن أنقمص شخصية عادية ، فإن أعداءنا يسهرون ، وثقى بما أقول .. ولكن من ذا الذى يمكن أن يشتبه فى كتارا ؟

- هل تتنكر كثيرا يامسيو ديمون .

- كثيرا جدا ، لدواعى مهنتى ، واجرؤ فأقول إننى أفلح فى هذه المهنة .. وسوف ترين .

وفى لمح البصر بدا أنه ينكمش وخبث نظرته تحت عويناته وتهدأت الجاكيت عند كتفيه كما لو كانت قد بليت وصم صوته وعاد إلى تأثاته وتردده وهو يقول :

- هل أبدو .. إذا أردت أن تسمحنى وتقبلن الوصف ، هل أبدو كأنتى شخص أخرق .

صفقت لوسيل بيديها وصاحت كطفلة فى المسرح :

- مرة أخرى !

قال ريشار ديمون : كلا .. أنسى أننى هنا لعمل خاص .. كفى هزلا .

- ولكن أين وضعت ليونس كتارا الحقيقى .

- صه .. فى النفتالين .. اعلمى يالوسيل أنه لايجب استجوابى أبدا .. ولك أن تطمئننى من ناحيته .

وتقدمته نحو الدرج ، وأوشك أن يقول : لقد سبق لى أن أتيت .

وأحس بارتياح كبير وهو يصعد الدرج خلفها .. قبل ذلك بيضعة أيام كان موجودا فى القصر يتغلب على خوفه أثناء صليل جرس الانذار .. أما اليوم دخل القصر الكبير مدعوا .. كان يعبد هذه المتناقضات والمواقف المقلوبة ، فقد كانت بهاء حياته الحافلة بالمغامرات ، ولما كان يحب المداعبة بطبعه فقد استمتع مسبقا بالدهشة التى ستشعر بها لوسيل عندما يعترف لها أنه ليس كتارا وإنما ريشار ديمون الصحفى ، وسار خلفها وهو يتظاهر بأنه يلقي حوله بنظرات حافلة بالاحترام والإعجاب .

- هذه هى غرفتك يامسيو كتارا .. إنها تطل على الحديقة .

- شكرا .. إنها غرفة جميلة ، وإننى أسمع العصافير .. إننى أحب العصافير .

كان يحاول أن يبدو رجلا عاديا لاشأن له ، مضحكا بعض الشئ .. وراق له كثيرا أن يشعر بأنه يتسبب فى قلق الفتاة لأنه لم يكن ذلك الذى كانت تنتظره وإنما كانت تظن أن ذلك الصحفى الغامض الذى يشغل ذهنها لن يأتى بعد .

- هل تريد أن تطوف بالقصر الآن ، أم تؤثر أن تستريح قليلا .

- بل أريد أن أتحدث معك .

وكانت لوسيل قد مشت نحو الباب ، فتوقفت وتحولت نحو الرجل الهزيل الذى تغير صوته فجأة ، وبدت الجاكيت الفضفاضة أنيقة عليه .. خلع عويناته وومضت عيناه خبثا وانحنى أمام الفتاة وهو يكنس الأرض بقبعة خيالية ويقول :

- ريشار ديمون فى خدمتك .

مجرد شبح .. وخيال .. لنفترق الآن .

ومضى إلى غرفة المكتبة وراح يتأمل فى حزن وأسى جدرانها التى تغطيها الكتب .. كان أمامه أربعة عشر أو خمسة عشر ألف كتاب على الأقل ، وعليه أن يقضى الأسابيع الطويلة فى تدوين بطاقات لها .. ولكنه لن يفعل ذلك طبعاً فإن أمامه عملاً أفضل ولكن ماذا ؟ .. لم يكن يدرى عم يجب أن يبحث فلكى يصل إلى نتيجة فعالة لابد أن يكون برناردان تحت يده هو والمذكرات .. أما البارون فسوف يظهر إن عاجلاً وإن آجلاً ، وعندئذ مضى راوول إلى المعرض ودهش على الفور لسعته وتناسقه .. كان عبارة عن قاعة كبيرة ينيها عدد من النوافذ المرتفعة تطل كلها على فناء القصر ، وثمة أمور غريبة .. كان هناك فى آخر القاعة جزء مسطح مرتفع أشبه بخشبة المسرح ولعله كان مخصصاً فيما سبق للموسيقيين ، عندما كان صاحب القصر يقيم الحفلات الراقصة .

وكانت مجموعة اللوحات رائعة يقف المتأمل أمامها طويلاً .. وكان راوول قد سبق له أن رأى أجمل اللوحات على ضوء مصباحه الكهربى ولكنه كان يقف الآن أمام مجموعة نفيسة لاتقارن بغيرها من اللوحات وتستحق عن جدارة تركيب جرس الإنذار ووجود المسدس .. وتملكه العجب وتقدم فى ببطء وهو يحاول أن يكتم وقع خطواته فوق بلاط القاعة المرمى ذى اللونين الأبيض والأسود المتعاقبين والذى بدا كرقعة الشطرنج .. كانت لوحات كثيرة ، لرهبان وقساوسة متشابكى الأيدي وبعض رجال البلاط وهم يمتشقون سيوفهم وبجوارهم قضاة يبدو التردد فى عيونهم بين غيرهم من أصحاب الوجوه المتأملة والصارمة .. كان يبدو أنهم يضيفون إلى صمت المكان سمة عامة من الاستياء .. وكانت هناك لحسن الحظ سجادة كبيرة يدل مظهرها على أنها تلقى عناية وصيانة كبيرتين ، كانت تقطع رتابة تلك الوجوه

- وهل تعرف كيف تؤدي عمله ؟

- ولكنه من أبسط الأعمال .. وقد سبق لى أن أدت أعمالاً أكثر صعوبة .. كان يبتسم .. كان سعيداً بصورة غير معقولة .. صوت صغير كان يعرفه جيداً كان ينفخ فى أذنه ويقول :

- يا لك من ممثل ! ألا تخجل من القيام بدور مايفو مع هذه الطفلة التى تبدى نحوك كل هذا الاعجاب ؟ ما الذى يمنعك من أن تمشى على يديك فى نفس الوقت وأن تسير بقدميك على الجدران ؟ .. وكان يرد على نفسه فيقول :

- لن تتجاوز الأمور أكثر من هذا ، وإنى أقسم على ذلك .. ولكن يجب أن تفهم أن الفتاة المسكينة كانت مريضة .. تعانى من الوحدة وإننى فى هذه اللحظة أرد لها صحتها وأعيد إليها الابتسامة وحب الحياة .. ثم إنك تضايقتى .

قالت لوسيل : سأريك القصر الآن .

- لاتزعجى نفسك بمرافقتى .. وأرجو المعذرة .. إننى أوشر أن أكون بمفردى وأنا أطوف بالقصر .. وبهذه المناسبة ماذا من أمر برناردان ؟ أجابت لوسيل : إنه لم يعد بعد ، وقد بدأ القلق يساورنا من أجله .. إذا طال غيابة فسوف يبلغ عمى البوليس ، فلفل شيئاً قد وقع له .. إننى أعلم تماماً أنه اعتاد أن يمضى ويأتى كما يريد .. لقد كان يعتز دائماً بحريته .

- وهذا هو السبب بالذات .. وسوف يملكه الغضب جداً إذا نحن أطلقنا الشرطة خلفه .. صدقيني .. من الأوفق الانتظار قليلاً استعملى نفوذك مع مسيو فيرانج ، وسأرى من ناحيتى إن كنت أستطيع أن أفعل شيئاً .. آه .. كلمة أخرى .. عاملينى دائماً بتحفظ أمام الآخرين ، وهذا أمر يسير طبعاً فأننا لا نعتبر شيئاً بالنسبة لك .. لست هنا إلا

.. وأطبق عينيه.. كم من مرة تجلت له الحقيقة فجأة وفى وضوح تام ! وأحس بأن الحقيقة تتكشف أمامه فى هذه اللحظة بالذات ، وإنما ستنقض عليه كما ينقض الوحى على الفنان ، وكل ما عليه هو أن يبقى مكانه وألا يتحرك وأن يترك لذهنه العنان لكي يهتدى إلى السر الغامض الذى يحاول أن يتبدى له .

القديس جان يخلف يعقوب .. القديس جان يخلف يعقوب .. حسنا ، وبعد أه ، أظن أننى فهمت .

وأنزل اللوحتين من مكانهما وعلق لوحة يعقوب مكان لوحة القديس جان .. وغطت اللوحة الأخيرة الجزء الفاتح من الحائط تماما وهكذا كانت لوحة يعقوب هى التى كانت تشغل هذا المكان فيما سبق ، وقد خلفتها لوحة القديس جان .

وان ؟ والفارس ؟ دارتنيان .. ما دوره فى كل هذا ؟ انطفأ الوميض السريع الذى تألق فجأة وسط الظلمات وتوترت كل أعصابه وراح يفكر .. كان هذا غباء كبيرا .. أن يلمس بأصبعه شيئاً على جانب كبير من الأهمية ثم يعود فيتخبط من جديد .

وفجأة عرف بغريزته أنه ليس وحده فرفع عينيه فى غير مبالاة إلى فترينة تضم مجموعة من النياشين ولكنه لم يحفل بالميداليات والمجوهرات والنياشين .. وعكست مرآة الفترينة قاعة المعرض .. واكتشف خلفه ، بجوار المدخل طفلة صغيرة عرفها على الفور .. فاليرى .. حفيدة برناردان .. وإذا كانت الطفلة قد داخلها الخوف من ريشار ديمون فإنها لم تشعر بأى خوف من ليونس كتارا ، لأن هذا الأخير يمت إلى عالمها ولأنه كان خجولا مثلها، ولعله بحاجة إليها لأنه خيل لها أنه تائه قليلاً فى هذا المعرض الكبير.. وتحول راوول فى ببطء وقال :

الصارمة ، نسجت بتلك البسمات المزرقعة التى تميزت بها المدرسة الفرنسية وتمثل بلاط الملك فرانسوا الأول ، وفى بدايتها رقعة شطرنج والملك واقف يبسط يده لكى يمسك بيدقا فى حين كان خصمه غارقاً فى التفكير .. وكان الرسم فى منتهى الرقة ، وعند قدمى الملك تكوم تريبوليه وراح يداعب كلبا سلوقيا فى حين بدا النبلاء يتمشون حولهم وهم يبسطون أيديهم لسيدات يرتدين ثياباً براقاً .

وكانت ثنية الثياب تبدو ثقيلة بعض الشيء وتدل على أذواق فجأة ويكاد أسلوب النهضة ينفلت بالكاد من أسلوب القرون الوسطى .. ولكن كان هذا المزيج المتوتر والطبيعى فى نفس الوقت ينم عن شاعرية نادرة .

تراجع راوول قليلاً لكى يتأمل بطريقة أفضل ذلك المزيج العجيب ثم انتقل إعجابه إلى إنسجام الألوان وتوافقها العجيب .. كانت قطعة فنية رائعة لو أنه رآها فى وقت آخر لظلت تلح عليه ليال طويلة .. وأفلتت من صدره زفرة وابتعد قليلاً لكى يقف أمام لوحة للقديس جان بابتست .. جهد كبير بدون فائدة .. وبجوارها فارس جالس فى حانة يعب الشراب فى ضخب مع زميلين .. كانت اللوحة مملوءة حركة ولكن راوول لم يكن يحب اللوحات ذات الأبعاد الطويلة والأعمال الطموحة أكثر مما يجب.. كان يفضل اللوحات الصغيرة كلوحة يعقوب الذى ينازل الملاك .

- رباه ! .. القديس جان .. ويعقوب .. ودارتنيان !

عادت كلمات الأب برناردان إلى ذهنه فجأة .. هل هذا ممكن ؟ القديس جان بعد يعقوب .. ولحظ راوول عندئذ أن المكان حول اللوحة التى تمثل القديس جان أفتح من غيره فارتد إلى الخلف .. لم يكن هناك أى شك .. كانت فى ذلك المكان لوحة أخرى تغطى مساحة أكبر

- إنه يمشى فوق السطح فى بعض الأحيان .

- ايه يمشى فوق السطح .. هل أنت واثقة ؟

- نعم .. وهو يمشى على أربع .

ونظرت إلى راوول خفية وهى تخشى أن تكون قد كشفت عن شئ يمكن أن يعطيه فكرة سيئة عن جدها، ولكنها لم تلبث أن ابتسمت عندما رأت أن السيد قابل اعترافها هذا باهتمام كبير .

- ومتى يمشى فوق السطح ؟

- فى الليل .. صحت مرة ورأيتة، وقد ساء ذلك وأوشك أن يضربنى .

- فاليرى ..

كان الصوت صوت لوسيل ، ووقفت الطفلة على الفور بعتبة المعرض .

- آه .. أأنت هنا يافاليرى .. ألايمكنك أن تردى على عندما أناديك .. معذرة يامسيو كتارا .. إنها فضولية كالقطة .. إننى أبحث عنها لكى أجبرها على العمل قليلا .

وكانت قد اقتربت واردفت تقول فى صوت خافت :

- جدها هو الذى يهتم بها عادة ولكن يجب أن أحل محله طبعاً .

وضع أمين الكتبة المزعوم يده على رأس فاليرى وقال :

- هل أنت راضية عنها ؟

- نعم .. إنها طفلة رزينة جداً .

- فلنمنحها اليوم عطلة إذا سمحت .

وربت على خد الطفلة وقال :

- فاليرى .

واتخذ صوته أشد اللهجات إقناعاً ، وجاءت إليه باسطة يدها .

- صباح الخير يافاليرى .. أترين ؟ إننى أتفرج فى نفس الوقت .. ليست لدى كراسة جميلة مثلك ، ولكننى أسجل أشياء فى رأسى .. هل لك أن ترينى إياها ؟

كانت تحمل تحت ذراعها الأيسر كراسة من مائة صفحة ، زرقاء ، وقد كتبت على غلافها اسمها بعناية كبيرة "فاليرى فوتيرى" وكانت تضم مواضيع إنشاء ومسائل حساب وملخصات ..

- أراهن أنك تليذة مجتهدة .

أجابت الطفلة فى سداجة : نعم .

- وأنت تذاكرين دروسك جيداً .. وأن لك ذاكرة قوية .

- أوه ، نعم .

- أنتحقق من ذلك إذن .. انظرى حولك .. هل انتقل شئ من مكانه ؟ ركزت الطفلة ، وبدأ عليها الجد والاهتمام فجأة فى إرادتها لكى تعطى لهذا السيد الظريف انطباعاً حسناً عنها .. وأجابت :

- كلا .. كل شئ كما هو .

- هل يأتى جدك إلى هذه القاعة كثيراً ؟

- نعم .

- وهل يقترب من الفترينات .. واللوحات .

- نعم .. فهو الذى يعنى بها وينظفها .

- ثم ؟ ماذا يفعل غير ذلك ؟

ترددت لحظة وقد احمر لونها وخفتت من صوتها وهى تقول :

لاتخافى .. لن يقع لك شئ .. اسمعى ، هذا باب آخر .. فأين يؤدي ؟
- لا يؤدي إلى أى مكان إنما هناك درب من الناحية الأخرى يتصل
بالحقول .. كان هذا الباب فيما سبق يؤدي إلى مقبرة صغيرة ملحقة
بالقصر وبعد الثورة أصبحت هذه المقبرة عامة ، وهدموا جدرانها ،
وقد ضمت الآن إلى مقبرة يونرفيل .

فتح راوول الباب ، وما كاد يفعل حتى رأى شبحاً يختفى فى زاوية
الجدار ولكنه لبث جامداً لا يتحرك حتى لا يخيف لوسيل .. ولم تكن
لحظت شيئاً : جميع آل يونرفيل فى هذه المقبرة .. هل تريدان تلقى
نظرة ؟ إن المدخل قريب من هنا .

واجتازا الدرب وانعطفا إلى اليسار فإذا بهما فى الطريق القادم
من البلدة والمؤدي إلى الباب العمومى للمقبرة .. وكان راوول يردد
البصر حوله لعل الرجل لا يزال يحوم فى المكان .. وهو بكل تأكيد أحد
خدم البارون .. ومشى لوسيل فى ممر طويل تحفه الأشجار ثم
انعطفت إلى طريق ثانوى أفضى بها إلى صف من القبور القديمة ..
وكان راوول يفحص الأنحاء فى حذر بين وكان الصمت المطبق يثقل
على الصخور والصلبان وباقات الزهور الذابلة .. وقرأ وهو شارد
الذهن الكلمات المحفورة فوق الشاهد الرخامى .

هكتور يونرفيل

١٧٧٢ - ١٨٥١

كان كريما نحو الفقراء صلوا من أجله

هكتور يونرفيل ، صاحب القصة الذى تحدث الأستاذ فرينيزو عنه
.. وعاد الحديث إلى ذهن راوول .. فرار لويس فيليب وعودته إلى
يونرفيل .. ورأى فجأة ، على مقربة من القبر شاهداً آخر أكثر
تواضعاً وعليه الكلمات التالية :

- امضى والعبي يا فاليرى ، ولندع الأعمال الجادة إلى الغد .

- شكرا ياسيدى .

وانطلقت وهى تعدو .

وقال راوول وهو يستعيد صوت ريشا ديمون: لعك تتساءلين لماذا ؟
ذلك لأننى بحاجة إلى أن أوحى بالثقة لهذه الطفلة ، فهى تعرف أشياء
- أية أشياء .

لا أدرى .. ولكننى سأسألها شيئاً فشيئاً .. لاتنسى أنها كانت تتبع
جدها فى كل مكان وأنها كانت تسمعه يتكلم .. هل يحزنها غيابه ؟
- لا أظن ، فهى كتومة جدا وقد رباها برناردان فى خشونة .. وقد
قلنا لها إنه سافر لقضاء عمل ، ولعمري سرها ذلك .

قال ديمون : هل تريدان أن ترينى البستان ؟ إن لدينا الوقت ..
ويجب أن يبقى خادمك ، ذلك الغز الساذج الذى أقبل من باريس
والذى يطوفون به أرجاء البيت .

ومشى خلف لوسيل بخطوتين فى احترام واستحياء وهو منحنى
الظهر قليلا ، وفى وضع ذليل حقا .. وطاف بالدور الأرضى للقصر
ومر أمام المطبخ حيث تعمل أبولين وخرج إلى البستان ، وعرف وهو
فى طريقه الباب الصغير الذى خرج منه البارون وشركاؤه فى الليلة
التي اختطفوا فيها برناردان .. وإذ أصبح بعيدا عن المقيمين بالقصر
اعتدل فى وقفته وسار بجوار لوسيل ، وقال :

- لهذه النزهة غرض آخر ، هناك ما يحملنى على الظن بأنكم جميعاً
مراقبون .. لاتسألينى من .. فمزال الوقت مبكر لكى أرد عليك ..
ولهذا يجب أن أعرف عن ظهر قلب تفاصيل القصر والبستان وكل
ما يحيط بهما ، لأننى واثق أن المعركة الحاسمة ستدور هنا .. كلا ..

وفجأة ، وبذهنه المتوقد العجيب الذى يجعله يثب إلى النتائج المنطقية دون أن يتوقف فى المراحل المتوسطة عرف أن فاليرى تتعرض للخطر بدورها هى الأخرى وأن الاشقياء الذين لم يكن هناك شك فى أنهم لم ينالوا بغيتهم من الرجل العجوز لايسعهم الآن إلا أن يحاولوا اختطاف فاليرى .. وتذكر الشبح الذى سارع بالهرب عند زاوية الجدار وتمتم يقول :

- كلا .. لن أغفر لنفسى أبدا .

سألته لوسيل وقد ارتبكت ازاء القلق الذى رأته على وجه زميلها :

- ما الخبر ؟

ولكن راوول أمسكها من يدها وجرها نحو الباب .. وفتشت عيناه الممرات وحواسه لها متوقدة تسجل أقل صوت .. طبعا .. إذا كان البارون موجودا ولعله كان قريبا جدا .. لم يخمن طبعا من الذى يختفى تحت مظهر هذا الموظف الجديد الذى تدل هيئته على أنه غير خطر ، ولن يحاول أحد الاعتداء على ليونس كتارا .. ولكن لاريب أن رجاله قد أخبروه بلاريب أن لوسيل التى لا تخرج إلا فيما ندر .. كانت فى هذه اللحظة بعيدة عن البستان .

وراح راوول يجرى تقريبا .. وكانت الفتاة تجد صعوبة كبيرة فى اتباعه ، وكان الباب الصغير لا يزال مفتوحا .. وسألها راوول :

- هل بقى برناردان فى القصر ؟

- كلا .. انه يسكن الكوخ الصغير الذى تراه هناك ، على اليسار ..

ولكن دعنى ، فاننى أظن أننى سأقع .

أطلقها راوول وراح يجرى .. واجتاز فناء الشرفة وهو فى عجلة

من أمره ، والتقى بأبولين : هل رأيت فاليرى ؟

ايفاريسست فوتيريل

١٨١٦ - ١٩٠١

ماذا ؟ فوتيريل ؟ لقب أهل فاليرى .. افاريسسى فوتيريل ، الخادم الوفى المخلص الذى تكلم عنه موثق العقود .. إذن فإن فاليرى هى الوريثة المباشرة لوكيل الكونت يونرفيل الشاب .. ايفريست الذى رافق الملك إلى تروفيل .. وإذن .. فإن الشيخ برناردان .
وأمسك راوول بذراع لوسيل وسألها قائلاً :

- قولى لى .. برناردان ؟ أيمت بصلة القربى لايفاريسست وتيريل ؟

- انه ابنه .

ومن جديد ، أحس راوول بذلك الانبهار الذى ومض فى ذهنه فى المعرض .. ومرة أخرى خبا الوميض واكتنفه الظلام . طبعا .. كانت العلاقة واضحة بين السر الغامض وبين فوتيريل .. ولكن ما هو هذا السر ؟

واردفت لوسيل تقول : لقد عاش برناردان فى القصر طوال حياته .. لعب فيه وهو طفل ، تماما كما تفعل فاليرى الآن ، وإننى لا تساعل إذا لم يكن هو صاحب القصر الحقيقى .. لقد اختفى آل يونرفيل ولكن آل فوتيريل مازالوا باقين .

قال راوول فى حدة :

- كررى .. أعيدى هذا القول .

نظرت لوسيل إليه مشدوهة وقالت : ولكن هذا صحيح .. لقد مات آل يونرفيل ، ولكن آل فوتيريل يتعاقبون ، أبا عن جد وابنا عن أب .

تمتم راوول :

- أه .. هو ذلك .. هو ذلك حقا .

- لوسيل ، فى مقديورك أن تساعدينى .. لم يفت الأوان بعد .. إنها لم تذهب بعيدا بالتأكيد .. فلنبحث .. لاريب هناك دليل ما .. فلنفتش بهدوء .. ولنبدأ بالمطبخ .

اطاعته لوسيل ورافقتة إلى المطبخ ، وبدأت ترفع المقاعد ، ولكنه أسرع يقول :

- كلا .. ليس هكذا .. البحث معناه النظر لكى نرى إن لم يكن قد نقل شئ من مكانه .. إن الأشياء تتكلم .

وراح يتقدم ويتراجع كما يفعل الرسام أمام اللوحة .. كان يحس بكل صغيرة ، ولم تجرؤ لوسيل على أن تتحرك .. وهتف فجأة :

- آه .. ما هذا ؟
وانحنى والتقط قصاصة الورق من جانب الساعة الكبيرة، وبسطها وصقلها بيده .. واقتربت لوسيل وقرأت معه :

"هاتى معك بالخطاب المخبوء خلف غلاف التوراة .. أنا فى انتظارك أمام الكنيسة بالغابة .. جدك" .

أدرك راوول أنهم أرادوا ألايستخدموا القوة مع الطفلة ، فقد خافوا أن تصرخ وتستتجد ولهذا أعطوها هذه الورقة واستمالوها إلى الفخ .. وهذا أفضل وأسلم .. التوراة .. لاريب أنها فى غرفة برناردان .

وعبر غرفة الطعام .. كانت التوراة فوق الطاولة بجوار الفراش ، وكانت عبارة عن كتاب ضخم مجلد بالجلد ، وفى الغلاف من الداخل ، تجويف رقيق كان من السهل إخفاء ورقة فيه .. ولكن المخبأ كان فارغا .

وهكذا سجل البارون انتصارا حاسما بعودته إلى الهجوم ، فقد اضطر الشيخ برناردان ، فى الحجر، تحت لسعة النيران إلى أن

- كانت هنا منذ خمس دقائق .. كانت تلعب أمام الباب ، ولاريب أنها عادت إلى الداخل .

ولكنه لم يكن مصغيا إليها ، فقد أسرع إلى الكوخ فى خطوات سريعة وهو يصيح :

- فاليرى .. ردى على .. فاليرى .

وفتح الباب ووقف ريثما يسترد انفاسه ، ولكنه كان قد عرف .

- فاليرى .

ودخل .. وفتش المطبخ وغرفة الطعام والغرفتين الأخرين على عجل .. اختفت فاليرى .. لم يكن بالكوخ أى مكان يمكن أن تختبئ فيه ..

لقد اختطفت تحت انفه وبصره وعزم وسرعة يدلان على جراءة غريمه ووقاحته .. وفكر راوول .. ومع ذلك فقد داخلنى الشك ، ولكن الشك

لم يكن كافيا .. آه ياللوغد ؟ انه جدير بأن يعذبتها هى الأخرى .. وانغرزت اظافره فى راحتيه .. ودار حول نفسه حائرا محاولا تجنب

الخطر ، وقد أحس بالذلة لأنه أخذ على غرة .. وتملكه الحزن بحيث

تشنج حلقه .. هذه الصغيرة فاليرى .. الأمانة والجدابة بضيفيرتيها الجميلتين وكراستها التى تمسكها بكل تلك الرقة مسألة الحساب .. قطاران .. وزمجر يقول :

- آه ، لسوف أقتله .

وجاءت لوسيل وهى تلهث وقالت :

- حسنا .. عم تبحث ؟

تمالك راوول نفسه على الفور وقال :

- فاليرى اختفت .

شحب وجه لوسيل بشدة ، وأسرع راوول يساندها قائلاً :

كل العناية بالسيدكار بحيث وجده راوول فى حالة صالحة ، ولكن المخزن كان فارغا ، ولحسن الحظ كانت بالجاراج بضع صفائح من البنزين، فملاً الخزان بكل دقة رغم الدقائق التى تمر ثم دفع السيدكار إلى الخارج وأدار المحرك وجلس أمام عجلة القيادة .. وضغط على الفرامل عندما بلغ المكان الذى تقف به لوسيل ، وكانت تنظر إلى كل مايفعل فى شئ من الذعر .

- تلك الكنيسة التى فى الغابة .. هل هى بعيدة ؟

- كلا .. بعد أربعمائة متر .. انطلق إلى اليمين ، بعد البستان وانطلق منتزعا بعض الحصى .. ورأى جدران الكنيسة التى يكسوها اللبالب ووضع قدما على الأرض وتقدم محاذياً حافة الطريق وهو يفحص الغبار الكثيف فى هذا الفصل من السنة ، ولم يستغرق فحصه أكثر من بضع لحظات ، لأنه لم يلبث أن رأى الآثار، وعرفها دون مشقة .. عجالات سيارة من طراز دنلوب .. وقد عرفها بسهولة بسبب أضلاعها المميزة .. وكانت هناك بركة صغيرة من الزيت فى المكان الذى توقفت فيه سيارة المختطفين ورأى راوول ما حدث وفى وضوح كما لو كان يرى فيلما سينمائيا الطفلة الصغيرة تجرى وهى بالغة الانفعال "أين جدى" .. إنه هنا ، وهو فى انتظارك .. وتتقدم فى غير حذر ولكن يدا تكمم فمها وذراعا تحملها وتنطلق السيارة .

وتمتم يقول :

- ياللاوغاد !

وألقى نظرة إلى ساعته .. كان التأخير الآن قد بلغ ربع ساعة وعاد للانطلاق وهو يفحص الأرض من وقت لآخر متابعا آثار الدنلوب بين غيرها من الآثار .. ولحسن الحظ كانت السيارات قليلة فى هذه الناحية النائية من نورمانديا .. وعندما بلغ بون اوديمار أبلغ فلاح أن

يكشف لجلاديه وجود التوراة والسر الذى تضمنه .. كان هذا السر لايزال موجودا قبل هذا بخمس دقائق .. ونظر راوول إلى ساعته .. خمس دقائق .. وما هى الدقائق الخمس ؟ إنه يستطيع أن يلحق بهم بالسيارة بكل سهولة .. آه .. لماذا دفعه الحرص إلى أن يحمل ليونس كتارا على القدوم بالقطار ؟

حاول أن يتظاهر بأنه واثق من نفسه وبأنه سيد الموقف ولكنه كان يسمع فى داخله نبضات التوتر التى تدق دون رحمة أو هوادة .

- لوسيل .. ماذا يوجد هنا من وسائل المواصلات ؟

- سيارة عمى .. ولكنه انطلق بها .

- وغيرها ؟ ألايوجد شئ آخر ؟

- بلى .. دراجتى .. وموتوسيكل أو بالاحرى سيدكار ، كان أبى يستخدمه فى تنقلاته للرسم .

- وأين هو ؟

- فى الجاراج .. ولكننا لم نستخدمه منذ وقت طويل .

- سوف استخدمه أنا .. أصغى إلى جيدا يالوسيل .. أثناء غيابى .. أوه لن يكون ذلك طويلا .. سوف تنسين كل ماحدث ، وسوف تخرجين وتقرئين وتقطفين الزهور، ولكن عليك ألاتفكرى فى أى شئ .. هل تسمعين ؟ ومن ناحيتى أنا، سوف أعيد إليك الصغيرة . اتفقنا ؟

كانت تنبعث من هذا الرجل قوة وسكينة بحيث أن الفتاة ابتسمت وقد شعرت بالاطمئنان .

وأمسكها راوول من كتفها ونظر إليها مليا ثم قال : سوف تكون هنا الليلة .

ثم أسرع إلى الجاراج ، وهناك بارك اشيل لأنه كخادم أمين اعتنى

دقائق .. لأنها اضطرت أن تتوقف .

دهش الغلام حين أعطاه راوول قطعة نقدية من ذات الخمسة فرنكات ، وراح يتابع بعينيه ذلك الرجل النصف مجنون والذي تدمع عيناه وينطلق بالموتوسيكل بهذه السرعة المذهلة .. وكان راوول قد انعطف إلى الطريق المؤدى إلى نهر السين .. وفجأة رأى السيارة وهي تتقدم في حذر بسبب المنعطفات الكثيرة .

- آه .. إنها لى الآن .

واندفع نحوها كما يندفع الصقر نحو فريسته .. وكانت نيته أن يسبقها ولو اقتضى ذلك منه القيام ببضع حركات بهلوانية وأن يقف فى عرض الطريق ، ولكن لاريب أن ركابها فطنوا إليه لأن السيارة أسرع ، وظهر ذراع من النافذة وقذيفة صغيرة من الدخان .. ولم يسمع راوول الطفلة ولكنه خمن صفيها وانحنى فوق عجلة القيادة وأبطأ وراح يمشى فى خط متعرج .

وأفرغ الرجل مسدسه كيفا اتفق ، ثم اختفى الذراع ، وانطلقت السيارة وقد ضاعفت من سرعتها .. واستشعر راوول فجأة ما سوف يقع فضغط على الفرامل فى قوة وانطلق بانحراف بين جانبي الطريق فى حين صعدت السيارة الثقيلة ممرا جانبيا واصطدمت بشجرة فقدت توازنها تماما وهوت فى النهر ، وعلى حافل الساحل .

وتناثر الماء وتطايرت رشاشات منه على وجه راوول الذى كان قد انحنى فوق الشاطئ وبدأ يخلع سترته .. وامتدت فى وسط النهر دوامة كبيرة بيضاء فى نفس الوقت الذى طفت فيه على سطح الماء رأس ثم أخرى .. وألقى بنفسه فى الماء وراح يسبح فى قوة نحو فاليرى ، وكانت توشك أن تغرق ، وأمسكها فى اللحظة التى همت فيها بأن تختفى .. أما الغريق الآخر فقد أسرع نحو الشاطئ دون أن

سيارة سوداء مرت قبل ذلك بقليل وانعطفت إلى طريق روجمونتية .
- هل كانت مسرعة .

- ليس كثيرا .. لاريب أن ركابها باريسيون لأنه واضح أنهم لا يعرفون الطريق جيدا .

قال راوول محدثا نفسه :

- آه .. إنهم لا يريدون لفت الأنظار إليهم .

وضاعف من سرعتة .. وزمجر المحرك كأنه يشكو من الإعياء .. وانعطف فى طريق روجمونتية ، ولم يلبث أن رأى الآثار فى أحد المنعطفات ، فقد حادت السيارة عن الطريق ووطأت الأعشاب وراح راوول يسابق الريح وقد تشعث شعره واحمرت عيناه من الغبار وأخذ يتطلع إلى الطريق الذى أمامه محاولا أن يتحاشى الحفر والأخاديد ، ضاغطا بركبتيه على خزان الوقود تجنباً للوقوع .. ورأى عن بعد جرس كنيسة لابوى .

ياللعنة ! كان هناك حشد متجمهر من الناس فى وسط الطريق ، حول عربة نقل سقط جوادها بين العريش .. وأبطأ سيره ودار بالحشد ورأى وهو يدور عينى الجواد البيضاء ووجه صاحب العربة الشاحب .. وصعد فوق الطوار وتوقف بجوار غلام سأل قائلاً:

- هل رأيت سيارة تمر من هنا منذ ربع ساعة ؟

- سوداء ؟

- نعم .

- والستائر مسدلة ؟

- نعم .

- ليس من ربع ساعة ياسيدى .. بل لا أكثر من أربع أو خمس

ابتسمت من غير أن ترد ، ولكنها مدت يدها إليه فضمها في حنو كبير وهو يقول :

- هل قطعوا لسانك ؟

- أوه ، كلا ياسيدي .

- كم رجلا كان معك .

- ثلاثة .

يا للشيطان ! سوف تخرج جماعة البارون من المغامرة حتما .

- ماذا قالوا لك ؟

- إنهم سيمضون بي إلى جدى .

- والخطاب الذى أخذته من التوراة .

- أخذوه منى .

- هل قرأته ؟

- كلا .. ولكن جدى كان يقرأه من وقت لآخر أثناء الليل ويبكى .

- وما شكله ؟

ترددت الطفلة ، فإنه يسألها الآن شيئاً صعباً جداً .. وعاد راوول

يسأل :

- هل كان قديماً ؟

- نعم .. كان هذا يبدو من ثنياته .. وكذلك المظروف .. كان

مصفراً .

- آه .. كان هناك مظروف اذن ؟ وهل كان يحمل عنواناً ؟

- نعم .. حضرة الكونت يونرفيل .

يهتم بفريسته .. وصاح به راوول : سوف نلتقى .

وشرب جرعة كبيرة من الماء وغطس .. وحمله التيار إلى شاطئ صغير ، وانصاع له وهو يحمل فاليرى ، ولم تكن قد فقدت الرشد .. ولحسن الحظ كان الطقس حاراً فى ذلك الوقت من شهر يونية ، مما جعل الحمام الاضطرارى أقل خطراً ، ووضع قدميه على الشاطئ دون صعوبة ، ورأى منحدرًا أفضى به إلى طريق غير بعيد عن الموتوسيكل .. وكانت فاليرى قد أحاطت بذراعيها الرقيقتين عنق ذلك الرجل الغريب الذى رأته موظفاً خجولاً متواضعاً والذى يضعها الآن فى رفق فى السيدكار الذى طالما تحدث عنه أشيل بكل سخرية .

- سوف أجفك يا صغيرتى ثم أعيدك إلى البيت .

ولم تعرف الصوت هو الآخر ولكنها أحست بالاطمئنان وتكومت فى مكانها وقد غلبها النعاس رغم البرد .. لعل الأب نويل ، عندما كان شاباً كان يشبه هذا الرجل الغريب الأطوار الذى يدير محرك السيدكار الآن .. وكانت غارقة فى النوم عندما توقف راوول فى فناء إحدى المزارع ، وقال انه تعرض لحادث غير خطير ، ولم تسمع الطفلة المزارعة وهى تترفق بها وتلفها فى غطاء دافئ وتشعل النار .. وشربت قليلاً من اللبن الساخن دون أن تفتح عينيها .. ولم يكن يشغلها غير فكرة واحدة كشعلة صغيرة من الفرع : أنا الآن آمنة .. إننى الآن فى أمان .

ولم تستيقظ تماماً إلا فى طريق العودة .. وكان زميلها منطلقاً بسرعة عادية .. وأحست بالراحة والهدوء بعد القلق الذى سيطر عليها أثناء سباق السيارة الرهيب .

وسألها راوول :

- هل أنت على مايرام يا صغيرتى ؟

يستطيع البارون حل رموزها ، كما لم يستطع حل رموز الكلمات :
يعقوب .. القديس جان .. دارتنيان .. يبقى خطاب إنجلترا .

وقال راوول :

- نحن متعادلان .. إن معه الخطاب ومعنى الجلد ، وهذا الأخير
يعرف مضمون الخطاب عن ظهر قلب وسوف يذكره لي ، وإلا فلن يبق
أمامي إلا أن أعمل غفيرا .. هيا يا صاحبي ، إن الحياة جميلة !



- حضرة الكونت ..

أبطأ راوول مرة أخرى ، فهو يقترب الآن من النهاية :

- ومن أين أتى ؟ أولى أن تتذكرى .. كيف كان الطابع .

- أوه ، كان طابعا قديما .. وعليه رأس سيدة .. كان جدى يقول
أنها الملكة فيكتوريا .

هكذا .. الملكة فيكتوريا .. خطاب مرسل من إنجلترا للكونت
يونرفيل ! فى أعماق الظلام الذى يتخبط فيه راوول ، ومضت نقطة
مضيئة تشير إلى المنفذ البعيد للنفق .

واستطردت فاليرى تقول :

كان جدى يقول لى إنه سيعطينى إياه عندما أكبر ، وانه لا يجب أن
أتخلى عنه أبدا .

زمجر راوول .. "سوف نسترده ، وسأعيد إليك جدك أيضاً" .

قالت فاليرى :

- ربما ينهروننى فى القصر لأنه ليس لى الحق فى الخروج من غير
إذن .

- كلا . سوف اهتم بذلك .

وألقى نظرة إلى ساعته وأردف :

- ثم إننا سنبلغ القصر قبل عودة السيد فيرانج ، فاطمئنى .

سكتت الطفلة وقد شعرت بالاطمئنان .. وراح راوول يفكر .. هذه
المحاولة الجديدة التى اقدم عليها البارون تدل على أنه لا يملك كل
الأوراق ، ولاريب أن مذكرات الكونت يونرفيل لم تفده بشئ .. ومادام
هناك سر فلا بد من الاعتراف بأن هناك شفرة تحميه .. شفرة لم

إلى قرارة نفسه وينظر فى شىء من الانقباض إلى الحقيقة دون مواربة ويقول : أنت تحبها .. كن صريحا .. إنها تحرك مشاعرك بشبابها .. وأنت ؟ أنت تثير خجلى .. ولكن افتح عينيك .. أنت أول رجل تلتقى به .. ثم إنك غامض وتثير إعجابها فى نفس الوقت ، فلا عجب إذا خفق قلبها أمامك .. ولكن حذار أن تلمسها يالويين .. عليك أن تتصرف على أطراف قدميك بمجرد أن تفرغ من هذه القضية .. لن تكون بالنسبة لك أكثر من ذكرى .

ثم وقع حادث أثار اضطراب راوول وقلقه ، فبينما كان يفحص الكتب والأضابير الموجودة فى آخر المكتبة اكتشف مظروفا كبيرا أصفر ، وهم بأن يفتحه حين أسرعت إليه لوسيل وهى مضطربة الوجه وهتفت تقول :

- كلا ، أرجوك ، لا تنظر إلى ما بداخله .

قال فى شىء من الاستياء : أه ، حسنا ، ليس من عادتى الفضول .

- أتسخر منى ؟

- لوسيل .. وهل أسخر منك حقاً ؟

- إنك تخمن كل شىء ، فقل لى ماذا يوجد فى هذا المظروف .

- لا أدرى .. يبدو أنها قصاصات جرائد .

- هو ذلك .. إننى اقتطفها من بعض الصحف القديمة .. ثم ولكن لا

أهمية لهذا .. لا أريد أن أخفى عنك شيئاً .. هيا .. يمكنك أن تفضه .

أطاعها راوول وأجفل على الفور ، فقد عرف هذه القصاصات

كانت تضم كل المقالات التى سبق أن أرسلها إلى جريدة "ايكودى

فرانس والفيجارو والجولوا" . يتهمك فيها من ضحاياها ، ويعلن عن

نواياها أو يدافع عن سمعته . وتملكه انفعال شديد واغمض عينيه وراح

كرمة القديس جان

استعاد راوول دون أى جهد شخصية أمين المكتبة ، وبدأ عمله مثيراً ارتياح سيد القصر ، فما أن يغادر هوبير فيرانج البيت ويمضى إلى المصنع حتى تآتى لوسيل وتتضم إلى ذلك الذى مازالت تعتبره صحفياً وكانت تساعده بقدر استطاعتها وكان يطوف بالجزء العلوى من المكتبة وينطق بعناوين الكتب وأسماء المؤلفين فتدونها فى سجل بعناية كبيرة . وكان ينحن أحياناً فوق الدرابزون ويتأمل الفتاة وقد انحنت فى رقة فوق السجل ، ثم يتملكه الارتباك ويعاود عمله . ولكنه رغم ذلك لم ينس مهمته لأنه كان يحس أن العدو يحوم حول يونرفيل . غير أنه منح نفسه مهلة بجوار الفتاة الفاتنة ، ومن ناحيتها هى ، لم تعد تستطيع الاستغناء عنه .

وكان قد مضى يومان على اختطاف فاليرى لم يقع فيهما أى حادث مؤسف .. وكان راوول يصطحب البولودج ، وكان قد تصادق معه ، ويقوم بالتفتيش سرا ، بعد أن ينام الجميع ، ويتحقق من الأقفال والأبواب والنوافذ . وكان يقوم أحياناً أثناء الليل ويتجول فى الممرات الكبيرة الواسعة أو يمضى ويتأمل لوحات المعرض ، ويفحص الجدران بسبابته وهو لا يدري عم يبحث .. ربما عن ممر سرى وربما عن مخبأ . وكان يعلم أنه يجب أن يعود إلى برونو وأن يتعجل الشيخ برناردان ، ولكنه كان يقول لنفسه إن من الحكمة أن يترك الشيخ العجوز حتى يطمئن ويأتس إليه ويفهم أن من مصلحته أن يتكلم .. ثم انه كان يهبط

الناس تقريبا .

- وكيف هو ؟

- أوه .. إنه رجل عادى كغيره من الرجال .

قالت لوسيل وهى تضم يديها :

- بل هو رجل عجيب ، فبالنسبة لى أنا التى أعيش هنا سجيئة القصر، يبدو لى ذلك الرجل الذى عاش كل هذه المغامرات أنه .. أنه .. لا أستطيع أن أفسر لك .. لو أنه ظهر أمامى فجأة فأظن أنه سيفمى على أو أننى سأقدم على شئ غير لائق .

وعاد سيد القصر فوضع فجأة نهاية لهذا الحديث .. ومضى إلى المائدة . ولكن راوول كان شارد الذهن وراح ينظر إلى لوسيل خلسة ، وكانت لاتزال باادية الانفعال ، وكان فيرانج يتكلم ويتكلم .. ولكن عم كان يتكلم فى الواقع ؟ عن الصيد .

كان يقول : فى الماضى كان البستان أكبر من ذلك بكثير . كان عبارة عن غابة تمتد بعيدا حتى جسر أوديمار، وكان أشرف يونرفيل يملكون سربا من كلاب الصيد، ومازالت هناك حتى اليوم شرفة كبيرة فى جناح لويس الثالث عشر كانت سيدات القصر يشهدن منها هجوم الكلاب على الفريسة كما يحدث فى مدينة شامبور .

قال راوول فى لهجة مهذبة ، وكان ذهنه فى أماكن أخرى :

- هذا غريب جدا .

- أليس كذلك ؟ سوف تمضى إليها بعد أن نفرغ من الطعام ما

دامت تهكم هكذا .

- كما تشاء .

وهكذا ، وبعد أن فرغا من تناول القهوة تأبط فيرانج ذراع كتارا

يستظهر إحدى هذه المقالات . وشاركته لوسيل لعبته وأغمضت عينيها هى الأخرى واستظهرت مقالة ثانية .. وراح كل منهما يتحدى الآخر ويستظهر التواريخ .. سنة ١٩١١ .. كلا ، بل سنة ١٩١٢ . وكانت لوسيل هى الراححة ، وأوشك أن يقول : إننى نسيت فقد وقعت أحداث كثيرة منذ ذلك التاريخ ، وانفجرا ضاحكين كما لو كانا طفلين .

وسألته لوسيل : إذن فأنت شديد الإعجاب به أنت أيضا ؟

- الحق إننى ..

وعادت تقول فى ارتباك ظريف : أما أنا فإننى أكن له .. أكن له .

همس راوول وقد شحب وجهها :

- تكلمى .

- إنه جذاب جدا .. وغريب الأطوار حقا .. وعمى تأتبه كل صحف باريس .. تماما كما كانت تأتى لأبى، وهكذا استطعت .. ليس ممنوعا أن يحلم المرء .. أليس كذلك ؟

- يقينا لا .

- كنت أتصور أنه .. أوه .. هذا أمر مضحك .. كنت أتصور أنه قد يأتى ذات يوم ، فالقصر مشحون بأشياء تستحق السرقة .. ولكنه لم يأت أبدا .

صاح : ولكن .. أرسين لوبين ليس كما تتصورين .. إننى على يقين من ذلك لأننى التقيت به .

- التقيت به ؟

ولعت عيناها فضولا وانفعالا .. واضطر راوول أن يبذل جهدا كبيرا لكى لا يضمها بين ذراعيه، وابتعد عنها قليلا .

- نعم .. التقيت به كثيرا ، فمهنى تقتضى أن التقى بجميع

الخفاء .. ومرة أخرى كان في مكيدته الضارية شئ أشبه بطريقة البارون .. مكيدة حانقة ولكنها شديدة القسوة .. ولكن من هو ؟ من هذا المخلوق الخفى الذى لا يرحم ، وأية معاهدة بشعة عقدها مع جالسيران ؟

تردد راوول . هل ينبغى أن يترك سيد القصر المسكين لكى يسرع وينبه لوسيل بالخطر ؟ ولكنه لم يلبث بعد شئ من التفكير أن أدرك أن الشرك قد أعد منذ وقت طويل ، وأن الذى أعده شخص راح ينتظر فى صبر فى مكان آمن كما فعل مع جاك فيرانج وزوجته ، وأن فى مقدوره إذن أن يترك سيد القصر وحده بضع دقائق أخرى .

وتظاهر بالذعر وأسرع يبحث عن عون ، وعاد بأشيل وأبولين وبينما كان الخادمان يحملان سيدهما ، وكان لا يزال مغمى عليه ، إلى غرفته ، أخطر لوسيل بما حدث وطمأنها فى نفس الوقت بقدر استطاعته ، ثم أرسل أشيل إلى البلدة لكى يأتى بطبيب .. وكان الفضل له فى عودة الهدوء والنظام فى بضع دقائق . وخلصوا عن فيرانج المسكين ثيابه فى حرص شديد ومددوه فى فراشه ، وعاد إلى رشده فى بضع ، وجلست لوسيل بجواره ، وجففت أبولين دموعها فى حين كان السكرتير العديم الشأن فى كل مكان ، يساعد الجميع ويتخذ أعجب الإجراءات مبرهنا للجميع خفية مقدرته وكفافته بحيث إنه ، بينما كان يعد جبيرتين ، أمسكه سيد القصر بيده وقال :

- أشكرك .. أشكرك .. إننى أدين لك بالكثير ، ولن أنسى جميلك هذا أبدا .

- صه .. لا تتكلم ولا تنفعل .

- لا أدري كيف حدث هذا .

- بأسهل ما يكون ، فإن وزنك ثقيل فانكسرت عارضتان .. أه .. ها

فى غير تكليف وقال :

- أه أعلم أن الدرج الذى يؤدي إلى الشرفة قد نخره السوس بحيث انتهى به الأمر إلى أن انهار . ونحن نستخدم سلما خشبيا مؤقتا . ولكن لاتخش شيئا .. إنه سلم متين ، وأنا ورنى أكثر منك بكثير وأصعد بسهولة ، وامضى من وقت لآخر إلى تلك الشرفة لأستمع بالمنظر الجميل الذى يطالعنى من هناك . وسوف ترى بنفسك .

وبلغا آخر الممر الطويل الذى يؤدي إلى غرف الطابق الثانى غير المسكونة ، وفتح فيرانج بابا أفضى بهما إلى مخزن دائرى .

وقال هوبير فيرانج : البرج الغربى .. وهذا هو السلم .

وقال كتارا مذعورا : يا إلهى .. إنه عال جدا .

- سأقدمك وأريك الطريق .

وإذ قال سيد القصر ذلك أمسك بقائمتى السلم وبدأ يصعد .

وقام أمين المكتبة الشاب بدوره بأعجوبة وأبدى فزعا طرب له فيرانج كثيرا وقال : إن السلم ينثنى قليلا بالطبع ، ولكننى أوكد لك . وكان قد بلغ قمة السلم . ودوت طقطقة ، ولم يجد راوول الوقت المناسب لكى يثب بعيدا ، ووقع فيرانج عند قدميه مثيرا سحابة من الغبار . وانحنى راوول فوقه . كان الرجل قد فقد الرشده وانساب خيط رفيع من الدم عند أذنه ، وانحنت ساقه اليسرى بصورة غريبة . وصعد راوول السلم فى خفة . وكانت العارضتان العلويتان قد انكسرتا . وأثبت له فحص سريع أنهما نشرتا عند مستوى القائمتين وكانت أسنان المنشار واضحة جدا .

وهبط راوول وهو مشغول البال . لم يكن حادثا عرضيا وإنما كان تخريبيا متعمدا تم بحذق ودهاء . مرة أخرى سبقه العدو وعمل فى

رأها فى حياته . ولكن راوول لم يكن فى القصر للفرجة أو السياحة ، فبعد أن ألقى نظرة سريعة على الريف الذى أضفى عليه الصيف لونا ذهبيا ، وعلى المقبرة والبرج القديم المهدم الذى رأى منه قصر يونرفيل لأول مرة ، وبعد أن ألقى نظرة يقظة إلى فناء الشرف حيث كان أشيل وأبولين ينقلان المصاب إلى السيارة ويدثرانه بالأغطية فى عناية فائقة ، نقل اهتمامه إلى الشرفة وعبارة فاليرى الصغيرة ترن فى أذنيه . "إنه يمشى على أربع فوق السطوح" . ولكن أى سطوح ؟ .. على هذه الشرفة لم يكن هناك داع لأن يمشى المرء على أربع لأن فى مقدوره السير على أتم راحته . ولكن كان من المستحيل الانتقال منها إلى مكان آخر لأن الألواح الحجرية كانت شديدة الانحدار .. فما معنى العبارة التى ذكرتها الصغيرة .

اعتمد راوول بذراعيه على الدرايزون الرفيع الذى يحيط بالشرفة وتابع بعينين فاحصتين السيارة وهى تنطلق بالمصاب . كان من السهل طبعا وضع قائمة .. جاك فيرانج وزوجته قتيلان .. وهويير فيرانج فى المستشفى وفى خطر كبير ، فقد يموت هو الآخر ، ولوسيل التى نجت من حادث والتى لازالت تتعرض لخطر فظيع .. وإذن ؟ يتبقى ثالث الإخوة فيرانج إذن العلم الذى تحدثت عنه عرضا والذى يؤول إليه قصر يونرفيل والممتلكات الملحقه به بعد موتها .. هذا غريب .. لا أثر من هذه الناحية .. ولكن مهما يكن من أمر فما هى العلاقة بين هذه المحاولات وبين الموت البشع لصاحبى القصر السابقين ؟ وأية علاقة بينهما وبين يعقوب والقديس جان ودارتنيان .. والدم ؟ .. أهو دم كل هؤلاء الضحايا ؟

فى تلك اللحظة ، وكان راوول يلقى نظرة أخيرة إلى الأسطح لكى يقنع نفسه بأن العصفور وحده يمكنه أن يمشى فوقها ، ورأى شيئا أثار كل اهتمامه ، فإن إحدى الهوائيات العديدة التى ترتفع فوق

هو الطبيب .

وابتعد مع لوسيل ، وانتظر نتيجة الكشف فى الخارج . وسألته الفتاة : هل تظن أنه حادث وقع قضاء وقدرًا ؟

- كلا للأسف .. فقد نشر بعضهم عارضتين بالسلم .

- رحماك يا إلهى .. متى ينتهى هذا الكابوس .

- قريبا ، أعدك بذلك .

- ألا يجب أن نبليج البوليس ؟

- أبداً . لا يجب هذا على وجه الخصوص ، فنحن لانملك أدلة كافية

ثم إننا أمام أعداء ماكربين لن تهمهم تحريات البوليس فى شئ . كلا . إنما يجب أن نضاعف من احتياطاتنا . ومن ناحيتى ، لن أبقى مكتوف اليدين كما تظنين .

وفتح الباب عندئذ واستدعاهما الطبيب ، وكان صريحا لأنه قال :

- إننى سأنقل مسيو فيرانج ، فإن حالته تزعجنى كثيرا . سوف أعالج ساقه بدون مشقة ولكن قلبه ليس سليماً تماماً ، ولأريب أن الصدمة كانت عنيفة جدا . ما كان يجب أن يقوم بأعمال الشباب وهو فى هذه السن . سوف يساعدنى أشيل وننقله إلى عيادة هونفلور ونضعه تحت الفحص بضعة أيام . وأرى أنه سوف يشفى سريعا ، ولكن الحرص واجب .

ودخل أمين المكتبة الغرفة وحيا مسيو فيرانج فى رفق وتمنى له الشفاء العاجل ثم خرج كما تقضى المجاملات . ولكنه بدلا من المضى إلى غرفة المكتبة عاد على البرج الغربى . وما هى إلا لحظات حتى أسند السلم إلى الحائط بخفته ورشاقتة المعهودتين .

لم يكذب سيد القصر ، فقد كان المنظر من أجمل المناظر التى

هبط راوول دون أية مشقة وطفق يبحث عن لوسيل ، ووجدتها في غرفة المكتبة ، وما أن رآته حتى حاولت أن تخفى دموعها فقال :

- ليس هذا بجميل .. اتنتهزين فرصة أن أوليك ظهري فتبكين .. كما لو أنني لا أستطيع الدفاع عنك .

تمتت : ذلك أنني خائفة جدا . سيلحقون بك الأذى أنت أيضا .
- أنت تعذبين نفسك من أجلى إذن ياعزيزتى لوسيل .. لو أطلعتك على قصتي فسوف ترين إننى اجتزت أخطارا أخرى كثيرة بدون ألم ..
كان شديد الانفعال . وفى رفق كبير أحاط كتفى الفتاة بذراعه وقال :

- لا تخشى شيئا يالوسيل .. أنا كالمداخن والنار غذائى .
ابتسمت خلال دموعها وقالت : إنك تشبه .

- من هذا ؟

- هو .

وأشارت إلى المظروف الذى يحتوى على قصاصات الجرائد ، وقال راوول مازحا :

- أوه .. وددت ذلك ، ولكننى دونه بكثير . ومع ذلك فإننى أعرف ما قد يفعل لو أنه هنا .

- وماذا يفعل ؟

- سيلقى عليك أسئلة لانهاية لها ، سيطلب منك أن تزوديه بكل ما تعرفين عن عمك الفونس .

كانت لهجته مرحة فيها سخرية يشوبها شئ من الرقة .. كان يملك

الأسطح لم تكن تدور . وفى حين إنها كانت تشير كلها إلى الشمال الشرقى ، وكانت الأسطح حافلة بكل نوع منها ، ومن أعلام مختلفة إلى حيوانات وسهام بسيطة معدنية ، كانت هناك واحدة ظلت تشير إلى الجنوب فى إصرار ، وكانت تلك الهوائية تمثل فى صورة فظة هيئة إنسانية .. جنديا شاهراً سيفه .

وفجأة ، فهم راوول ، كلا .. لم يكن جنديا عاديا وإنما كان فارسا .. ولكن .. ولكن .. أنت مخطئ يالوبين ، وإذا استمررت على هذا فسوف ترى فرسانا حتى فى السحب التى تمر فوقك .. ومع ذلك ، كان الصداً يعلو الهوائية .. تأكلت بفعل الدخان وتقلبات الجو ، ولا بد أنها فى مكانها هذا منذ أجيال طويلة . ولكن المعطف ذا الثنيات المتوترة التى تتعرض للرياح ، كشراع سفينة والسيف المشهر نحو السماء والحذاء .. نعم ، هذا فارس حقا .

واحتد راوول غضبا لأن هذه الأدلة التى زرعتها قدر ساخر تحت قدميه ، كفتات الخبز لم تكن تؤدي إلى شئ .. دارتنيان يفوز بالمجد والثروة بحد السيف . ها هو الآن أمام دارتنيان ، ولكن الام يشير بسيفه ؟ إلى الريف أم إلى السماء ؟ أم الفضاء .. ثم . هناك دارتنيان آخر فى قاعة المعروضات ثم .. ولكن ، لاداعى لأن يشغل ذهنه ويفرط فى التفكير . وسوف تأتى اللحظة التى تلتئم فيها جميع قطع اللغز .. كانت قوة هذا الرجل الفذ فى أنه لم يكن يكابر ويعاند نفسه .. كان يعرف خيرا من أى شخص آخر اللحظة التى يتيح فيها الاستنتاج والمنطق وحدهما إحداث ثغرة فى جدار الظواهر المضادة . وإذا بدا له الطريق مسدودا فى أية لحظة فإنه يغير الاتجاه على الفور ويبحث عن منفذ فى مكان آخر . وكان المنفذ فى الوقت الحالى هو الفونس فيرانج .

- لقد كان هذا كرما منه .

- كان أبى كريما جدا فى الواقع .

- وماذا فعل هذا الأخ ؟

- لاشئ يذكر .. فكر فى أن يكتب .. وكان قد كتب فى شبابه ديوانا من الشعر .. بضع قصائد على نمط هيريديا لأنه كان معجبا به جدا . ثم كتب بعض الروايات بعد ذلك ثم فطرت همته شيئا فشيئا .

- معنى هذا أنه رجل فاشل .. وفى أثناء ذلك كان يرى أخويه يزدهران وهذا البيت ، هل يعرف باسم ؟

نعم ، كرمة القديس جان .

وكان راوول قد ألقى هذا السؤال بطريقة آلية ما كاد يسمع الرد حتى أجفل .

- كرمة القديس جان ! ..

قالت لوسيل :

- نعم .. وما الغرابة ؟

- لاشئ .. لاشئ بالطبع .

ولكن حاجته إلى العمل جعلت الدم يغلى فى عروقه ، فقال :

- هل هو الذى أطلق على البيت هذا الأسم ؟

- كلا ، كان البيت معروفا بهذا الاسم عندما اشتراه أبى .

خفض راوول صوته وقال : أين كلبك ؟

- فى غرفتى . نائم .

- أريد أن تصطحبيه ابتداء من اليوم فى كل مكان .

ووضع إصبعه على شفثيه، وفى ثلاث خطوات كان بجوار باب قاعة

قدرة عجيبة لبث الهدوء فى القلوب . ونسيت لوسيل قلقها وردت عليه فى نفس اللهجة المرححة :

- كنت أقول له : سلنى يامسيو لوبين ، فإننى لن أستطيع أن أخفى عنك شيئا .

- حسنا . فلنبدا إذن . أريد أن أعرف قبل كل شئ آخر لماذا لا نرى هذا العم أبدا . كان يجب ، طبعاً ، أن يشعر بشئ من القلق عليك وعلى أخيه ، وأن يأتى لزيارتكما أو أن يدعوكما لزيارته .

- إن عمى هوبير لا يحبه كثيرا . ويجب أن اعترف بأنه ليس ودودا مع أحد . ومهما يكن فهو يعيش فى عزلة كالرجل المتوحش .

وتنهدت : ومع ذلك فإن والدى كانا متفاهمين جدا معه ، وأبى على الخصوص .

- وأين يقيم ؟

- ليس بعيدا من هنا .. بعد كنيسة سانت ادريس . قد مررنا به فى عودتنا من "الصخرة الكبيرة" . ولا أذكر إذا كنت قد حدثتك عن ذلك ، ولكن "الصخرة الكبيرة" . كان جزءاً من أرض اشتراها أبى قبل زواجه بكثير .. وفى أسفل الصخور، هناك البيت .. أعنى الكوخ الذى تعرفه .

وارتجفت فتمتم راوول :

- نعم .. تكلمى فإننى أعرفه .

- وهناك ، بعده بقليل ، فوق التل ، البيت الذى كنا نعيش فيه .. فى وسط مزرعة كان أبى قد اشتراها بثمن زهيد وادخل عليها إصلاحات لكى تكون مقاما مريحا ، ثم تنازل عنه لأخيه الفونس بعد أن اشترى يونرفيل ، غير أنه احتفظ لنفسه بالصخرة الكبيرة .

ولكن إذا توخينا الحرص وظللنا متيقظين فلن نتعرض لأي خطر ..
الخوف ممنوع وأنا غائب .

- لن أخاف .

وبسطت له يديها في براءة ، وأحس بأن رباطة جأشه ستخونه
فتمتم :

- امضى سريعا . اعطيني هنا المفتاح لكي أذهب . أه .. نسيت ..
سأستقل السيدكار ، ولك أن تقولي لاشيل ما تشائين .

وانتظرها أمام إحدى النوافذ الكبيرة التي تطل على فناء الشرفة .
كان كلما ازداد تفكيرها كلما ازداد اقتناعا بأن العدو ذكي وشديد
الحرص لكي يقوم بمحاولة أخرى فورا ، وكلما ازداد اقتناعا كذلك بأن
العم الفوننس يلعب دورا في هذه المأساة الغامضة . ولكن كيف ؟ إنه
لم يكن يستطيع أن يظهر حتى لايفتضح أمره على الفور . ولكن ذلك
الذي كان راوول يدعوه بالوحش كان يبدو انه يعيش في جواره آل
فيرانج ، ويتجول في القصر كمخلوق خفي . كان هناك سر مخيف في
هذا الصدر .

قالت لوسيل :

- ها هو المفتاح .. توخ الحرص .

كانت تقف بجواره ، بريئة ، مطمئنة ، أمانة بوجه انثى وعيني طفلة .
وأردفت تقول في تلقائية :

- سأفكر فيك كثيرا .

وهم بأن يصرخ :

- ولكن احتمى بالله .. ألاترين أنك تعذبيني وأننى لا أطيق .

وأخذ المفتاح واختفى . ونقل غضبه الذي يغلى في كيانه إلى

المعرض ، ففتحه في عنف . ولكن لم يكن هناك أحد . وارتد صوت
اصطفاق الباب مدة طويلة كرنين الجرس في قبعة الكنيسة . وعاد
على عقبه وهو يحاول أن يتظاهر بالهدوء وعدم الاكتراث .

- معذرة . خيل لي أنني سمعت .. هذا سخيف . أن أبولين لديها
ما يشغلها طبعاً غير استراق السمع .

- أوه .. إننى أكفلها .. وأكفل زوجها أيضا .. إنها شديدا
الإخلاص لنا ثم إن أشيل لم يعد بعد .

غير أن راوول لم يكن يفكر لا في أشيل ولا في أبولين .. وإنما كان
يفكر في "الأخر" .. في ذلك نشر العارضتين والذي خرب قبل
ذلك مركبة الفتاة ، وأعد فح الباب القلاب .. أهو الذي كان يقف منذ
لحظات عند باب المعرض .. ذلك لأنه كان هناك شخص يقف بالباب
بالتأكيد .. وكان راوول واثقا من ذلك .. أيمن أن يكون هو البارون
.. ونظر إلى ساعته .

- عودي الآن إلى غرفتك ، وعندما تغادريها بعد عودة أشيل
اصطحبي بولوكس معك .. هل تسمعين ؟ أما أنا فلدى عمل خاص
أريد أن أتحقق منه ، وسأبقى في الخارج وقتاً طويلاً ، وأريد أن
يكون قلبي مطمئناً . وبهذه المناسبة ، قد أحتاج إلى مفتاح إذ ليس
في نيتي أن أطرق الباب ربما في منتصف الليل .

- هذا أمر ميسور . سأعطيك مفتاحي فإننى لا أستخدمه أبدا .
تعال . إنه في درج مكتبي .

وخرجا من المكتبة . وقال راوول : ولكن لاتتوهمي أن هناك أشياء
بحق الله . أنت لست في خطر .. في الوقت الحالي على الأقل ، فنحن
نواجه رجلا يأخذ كل وقته ويتصرف تصرف القناص ، فهو يلقي
بشباكه وينتظر في صبر في الأماكن التي يمر ضحاياها نون حذر ..

الذهاب إلى الصخرة الكبيرة كان يرسم لوحاته فيه . ولا ريب أن أخاه كان في تلك اللحظة في المرسم يكتب أو يقرأ .

كان بيت الخزين يرتفع بجوار الجدار ، ولم يكن تسلق السطح بشكل أية مشكلة . وقد اجتاز راوول العقبة كالشبح ، مستعينا بشجرة لبلاب قوية . ولم يعد أمامه إلا أن يتقدم حتى المرسم وهو يتوخى الحذر التام . وألقى نظرة وما كاد يفعل حتى تجمد مكانه .

رأى تحته رجلا عرفه على الفور .. خادم البارون .. ذلك الذي هدده بالمسدس . وكان يضع يديه في جيوبه ويدخن سيجارة وينظر إلى الجزء الذي لم يتمكن راوول من رؤيته بعد . كان لابد له لذلك أن يتقدم أكثر ، ولسوء الحظ كان القمر بدرا وكان من الممكن أن يعكس ظله على أرضية المرسم .. ولهذا تقدم بمنكبيه بضعة سنتمترات ، وكان كلما ازداد تقدما كلما اتسع المنظر تحته . كانت هناك كتب لصق الجدار . وفوق المنضدة مجلة لاتزال مفتوحة ، ولكن أين الفونس ؟

ولم يلبث أن رآه ، وتوترت ملامحه على الفور ، لأنه رأى الفونس موثق اليدين فوق مقعد والبارون جالسيران يقف مصوبا مسدسه نحوه . رأى كل شيء في وضوح وخيل له أنه يحلم ، وفي هذه المرة لم يكن راوول ممددا على صدره فوق الأرض الصلبة وإنما فوق سطح ، ولم يكن المجرمون يحرقون قدمي الضحية ولكن الأمر كان أسوأ .. كانت المسألة مسألة ثوان ، وكان من السهل أن يفهم كلمات البارون رغم عدم سماعها : واحد .. اثنان .. ثلاثة .. السر وإلا قتلتك .

كان فيرانج يحرك رأسه ذات الحاجبين الكثيفين التي تجعله يشبه هوبير . وكان يقول : لا .. خمسة .. ستة .. سبعة .. جالسيران يوشك أن يطلق النار وصعدت صرخة في حلق راوول : " كلا . إنك لن تقتله

الموتوسيكل ، على أن غضبه هذا لم يكن غضبا بمعنى الكلمة وإنما كان حزنا وشجنا . وخطر له لحظة أن ينعطف إلى طريق آخر لكي يمضى ويستجوب الشيخ برناردان وأن ينتزع منه سر يونرفيل طوعا أو كرها ، ولكنه عدل عن غرضه هذا خوفا من أن يضيع وقتا ثمينا . ولكن عندما وصل إلى الهافر تعطل الموتوسيكل واضطر أن يبحث عن جراج وأن يعود بالميكانيكي الذي راح يفحص المحرك في غير اقتناع ويردد في إصرار : إنها الشمعة .. هي الشمعة بالتأكيد .. وعندما أصبح السيدكار صالحاً للاستعمال أخيرا كان الليل قد بدا يهبط ، ولو أنه مرت دقيقة أخرى على الميكانيكي لما كان هناك أى شك في أن يكتم راوول أنفاسه .

وانطلق أخيرا في طريقه إلى سانت ادريس ، واندفع غير آبه بالحفر والأخاديد حتى الطريق المؤدى إلى الصخور والمنحدر حيث يقع بيت " الصخرة الكبيرة " . وحيث يجب أن تكون " كرمة القديس جان " . على يمينه . وترك السيدكار خلف أجمة وسار مسرعا . كانت كرمة القديس جان حقا يحيط بهم سور قديم يكاد يكون مدفونا في غابة من النباتات المتسلقة ويستطيع طفل أن يتسلقه دون صعوبة . واجتازه راوول ورأى البيت . كانت لوسيل قد تكلمت عن مزرعة قديمة ، وتوقع أن يجد بيتا قديما ولكن كانت دهشته كبيرة حين رأى بيتا حديثا تعلو بابه تعريشة جميلة ..

كانت النوافذ مغلقة بمصاريعها الخشبية ، ولم يكن هناك أى نور في الطابق الأرضي ولا في الطابق العلوي . ومع ذلك فقد كانت هناك هالة من النور حول السطح . وراح راوول يتحرك بدون صوت فدار بالبيت وتراجع بضع خطوات إلى الخلف ، وأدرك على الفور أن الضوء المبهم الذي يثير حيرته ينبعث من كوة فوق السطح ، ولا شك أن والد لوسيل قد أقام له مرسما ، وعندما كانت الظروف تمنعه من

الطريق المؤدى إلى الصخرة الكبيرة . وكان الرجلان يشقان طريقهما فى المنحدر، فوقعا فى مشقة لوعورة الدرب ، وراحت الحجارة تتدحرج . وبلغ راوول البلاج . ومضى نحو البيت دون أن يسرع .

وصاح البارون : سلم نفسك ، فلا سبيل لك إلى الهرب . ووقف راوول على عتبة الباب ورفع يديه .. ووصل الرجلان وهما يلهثان بشدة ويشهران مسدسيهما فى عزم وقوة . وقال راوول :

- حسنا .. حسنا .. لقد ربحتما .

وكرجل مصمم على الحديث فتح الباب ودخل وتبعه الآخران .. وكان ضوء القمر يتسرب من خلال النوافذ .. ومع ذلك فقد أضاء الخادم مصباحه .

قال البارون :

- حسنا . لن يزعجنا هنا أحد .. إن لدينا حديثا طويلا يا صديقى العزيز فى أمور كثيرة .. اجلس .

- هذا لا يصح .. تفضل أنت أولا .

- قلت لك اجلس .. مفهوم يا لوبين ؟

- مادمت تصر بهذه المجاملة التى تناسبك تماما ، فليكن .

وجلس راوول وعقد ساقيه فى غير اكتراث .. وأخذ البارون المقعد الآخر ، وقال فى خشونة : أنا الذى ألقى الأسئلة .

- كلا .

- ماذا ؟

- كلا .. فطالما لم يعد رجلك المسلح مسدسه إلى جيبه فلن أتكلم .

- سوف نرى .

أمام عيني بكل جرأة" .. وزحف أكثر.

وكانت كارثة ، فإن لوح الزجاج الذى كان يتكى عليه انكسر فجأة . ولم يجد الوقت الكافى لكى يرتدى جانبا ثم يرتد حتى الجزء الصلب من السطح . ووقع لوح الزجاج فى المرسم وتفتت متناثرا فوق الأرض .. الهرب .. كان لابد من الهرب لأقصاء المجرمين عن فريستهم . وسوف يتفاهمون إذا ما بلغوا الأرض المكشوفة .. رجل ازاء رجلين .. كانت اللعبة غير متعادلة وهى معركة خاسرة مسبقا بالنسبة للبارون .. وفكر راوول .. ليتهما لا يطلقان على الرصاص ، فمع أناس حمقى مثل هؤلاء يمكن توقع كل شئ .

وأسرع إلى سطح المخزن ، ورغم أنه كان واثقا من نفسه ومن سرعة قدرته على الارتجال فقد راح يلعن نفسه لأنه أتى من غير أن يأخذ معه سلاحا ، فإن المسدس الضخم الذى يحتفظ به سيد القصر فى درج مكتبه كان يمكن أن يساعده . وفى اللحظة التى لمست فيها قدماه الأرض سمع صيحة :

- من هنا .. فأسرع نحو الجدار وهو محنى الظهر .

ودوت طلقة خلفه فاعتدل واقفا وهو يسب ويلعن ، ووثب فوق الجدار ولكنه سمع هذه المرة الرصاصات ترتطم بالصخرة ، وعلى مقربة منه .. كان الريف يمتد أمامه مكشوبا والقمر بدرا ينير المكان بحيث أن راوول كان يرى خياله تحت قدميه كما لو كان الوقت نهارا . وأسرع نحو الصخور تشييعه رصاصتان أخريان وراح يفكر وهو يجرى : ليس فى مقدورهما اللحاق بى ولكن إذا أنا هربت فقد تصيبنى رصاصات .. لاتهرب .. لاتهرب .. أه يبقى حل واحد .. وحل واحد فحسب وانحرف نحو البحر، وإذا تأكد الآخران أنهما سيضيقان عليه الخناق فى الفضاء كفا عن إطلاق النار واهتدى على الفور إلى

.. إننى أعرف ذلك ، فقد رأيتها .

وأردف يقول فى غير اكتراث لكى يثير اهتمام البارون :

- كان فى نيتى أن أنقل الشيخ برناردان هنا .. ولكن تصور أن ..

بدأ البارون يقول :

- آه .. هذا ما أريد أن أتحدث عنه بالذات .

قطع عليه الكلام قرقعة مفاجئة ، فقد ابتلع الشرك الخادم .. وهب

البارون على قدميه وهو يقول يقول :

- ما هذا ؟ .. ماذا تصنع ؟

وأزاح الستارة ، ووقف مصعوقا وهو يرى الغرفة شاغرة .. ولم

يترك راوول له الوقت لكى يعود من دهشته فأسرع نحوه ودفعه

بقبضته إلى الأمام . ووجد البارون نفسه يندفع نحو الشرك ، واختفى

بدوره وهو يصرخ .

وجفف راوول أصابعه بمنديله وهو يقول :

- أف ! .. إن التسليم من الباب للباب أمر مرهق .. إننى لاستحق

حقا أن أتناول كأسا بعد هذه المشقة .

ودار بالباب القلاب ، والتقط فى طريقه المصباح الذى وقع من

الخادم ودخل المطبخ .. وهناك ، ورغم توتره العصبى انفجر ضاحكا

.. كلا .. إن هذا الأمر غير مصدق .. لقد صدق من غير أن يدري ..

كانت زجاجات الشمبانيا موجودة ، ولكنها لم تكن مرصوفة فوق

المائدة وإنما على الأرض . كان هنا ست زجاجات .. آه يابارون ، هذه

متعة ليس بعدها متعة واننى لأشكر .

ولكنه كف عن المزاح على الفور .. هذه الزجاجات .. فكر فى وليمة

الذكرى السنوية التى أعدها جاك فيرانج بكل الحب .. ووجد فى

- هذا قرارى .

ومرة أخرى خضع البارون لقوة عدوه فأتى بإشارة أخفى الخادم
مسدسه على أثرها . وعاد راوول يقول :

- وبهذه المناسبة ، ألم يشترك رجلك الدميم فى الحفلة ؟ هل تركته
فى البيت ؟ هذا إذا لم يكن مستقرا فى قاع السين .

وأزاء توتر البارون أدرك راوول أنه لمس الوتر الحساس .. وتتأب
فى أدب ، خلف يديه ، ثم قال :

- أأست ظمأنا .. إن الجرى هكذا بعد العشاء يصيبنى بالظمأ .

صاح البارون : لن تشعر بأية رغبة فى أن تشرب فيما بعد .

- هذا جائز .. ولكن كأسان من الشمبانيا فى هذه اللحظة بالذات
سيكون على الرحب .. هناك بضع زجاجات من الشمبانيا فى المطبخ
.. قد لاتكون الخمر معتقة بما فيه الكفاية ، ولكن شيئا أحسن من لا
شئ .

وقال يخاطب الخادم :

- ألبس قفازك الأبيض وامض وائتنا بزجاجة .. سوف يسرنى جداً

أن نتناول كأسا .

قال البارون وهو يضحك ضحكة ثقيلة :

- مادامت هذه رغبتك الأخيرة فلا بأس من الشمبانيا .

أزاح الخادم الستارة التى تخفى مدخل المطبخ وهو يقول :

- هل هى هنا ؟

أجاب راوول :

- نعم .. على اليسار مباشرة .. الزجاجات مرصوفة فوق المائدة

الانفعال . لست أنا .. لست أنا .. افتح .. افتح .

سأله راوول :

- من إذن ؟

- لا أدري .. أقسم لك .

- أليس لديك أية فكرة ؟

لم يأتيه أى رد .. ولم يزد راوول إصرارا فإن الليل سيكون خيرا ناصح للبارون .. وخرج وأغلق الباب فى عناية كبيرة .. وكانت الحصى تبرق تحت ضوء القمر حتى الأمواج الأولى التى تتلاطم فوق الشاطئ من بعيد .. وأحس راوول بالتعب ، ولكنه ما كان ليرضى بالراحة ولا حتى بالجلوس لحظة لكى يتمتع عينيه بهذه السماء التى تتناثر فيها النجوم .. كان شغله الشاغل أن يسرع إلى الشيخ برناردان فى بيت فيكتور .. وفكر .. البارون فى القبو .. والفونس موثق القياد فوق مقعده .. لقد كثر عدد الأسرى .. يجب أن أفتح سجنا قريبا .. وفى بطن صعد الدرب وهو يتوقف من لحظة لأخرى لكى يسترد نفسه مستمرا فى تأملاته .. لاريب أن البارون لم يكذب عندما قال أنه لا يدري من الذى قتل جاك فيرانج وزوجته ، ووقوعه فى الفخ دليل على أنه لم يكن يعرف شيئا عنه . ولاريب كذلك فى أنه لم يشترك فى الاعتداء المدبر ضد لوسيل ولا ذلك الذى وقع للبوصى على الفتاة هناك شخص آخر يعمل فى الظلام ، وهو يخطط لجرائمه بكل ذكاء ودهاء وينفذها فى غير رحمة ، فى الخفاء ، دون أن يعرف أحد شيئا عنه .

سرت قشعريرة فى بدن راوول ، كان يكره النضال فى الخفاء .. هذا الرجل الشجاع ، القوي .. الذى يعرف كل الحيل كان يخاف من كل من يضرب غدرا وخيانة ، ومن كل من يضع قناعا ويتقدم فى

الشمبانيا مذاق الدم . وعاد إلى الستارة فى صمت وأصاخ السمع .. كان يكثران من الحركة تحت قدميه .. وانحنى نحو الباب القلاب وصاح :

- لاداعى للتعب والإرهاق أيها الصديقان فلن ينجدكما أحد .. ولكن أنا أستطيع .. هل تسمع يابارون ؟ لا يوجد هنا غير شخص واحد يلقي الأسئلة ، وهو أنا .. فأجبنى إذن .. ماذا كنت تطلب من الفونس فيرانج بكل تلك الرقة ، هيا .. تكلم ، فإننى بحاجة إلى النوم ، ولن أبق هنا طوال الليل .. كلا ؟ أعلم أنتى لست بحاجة إليك .. سأعود إلى الكرمة وأنقذ ذلك الرجل العزيز وسوف يسره أن يخبرنى بما أريد .. إذن ؟ كلا ؟ حسنا .. كما تشاء .. فلنتكلم الآن عن الخطاب .. أنت تعرف .. خطاب انجلترا الذى يحمل طابع الملكة فيكتوريا .. فيما بيننا ، هو خطاب ثمين يطيب لهواة جمع التحف الحصول عليه .. إذا أعطيتنى إياه افتح الباب .

دوت طلقتان اصمتان رجتا الأرض ، وظهر شعبان فى خشب الباب .. وقال راوول :

- حسن جدا .. أرى أن علاقاتنا مازالت على توترها بعض الشيء .. هذا أمر مؤسف .. ولكننى أحب مع ذلك أن أنبهك .. إذا كنت لاتعرف ، فإن معكما رفاق فى القبو .. نعم .. هيكلان إذا تحسست الأرض فى رفق فسوف تجدهما ، وصدقنى يابارون إنه ليس من مصلحتك أن توقظهما .

ساد صمت عميق ، وعاد راوول يقول : هل تحب أن أقوم بواجب التعارف ؟ جاك فيرانج وزوجته .. البارون جالسيران وشريكه .. ميطان تحت التنفيذ .

وردت عليه صرخة زعر ثم ارتفع صوت البارون وهو يتهدج من

المذبحة

وهكذا ضرب الوحش ضربته ، بل لعله لا يزال في البيت لأن جسد الفونس فيرانج كان لا يزال دافئاً .. وابتعد راوول عن الجثة وهو يسحق تحت قدميه الزجاج في صوت صاخب رغم حذره وحيطته .. ووقف في ركن خفى لا يمكن لأحد أن يراه منه سواء من الخارج أو من رأس السلم .. كان يجب أن يرسم خطة سريعة مفاجئة وأن يبادر بالهجوم وإلا فإن جرائم جديدة يحتمل أن تقع .. ومع ذلك فإن راوول لم يستطع أن يحول عينه عن الجسد الموثق القياد .. انتابه الحزن فإنه في اهتمامه بنضاله مع البارون لم يخطر له أن "الآخر" يمكن أن يكون موجوداً في ساحة المعركة في نفس الوقت .. وفي اللحظة التي اعتقد فيها أنه أصبح سيد الموقف إذا به يغلب على أمره بصورة نهائية وبطريقة مهينة ويقهره رجل أكثر منه حدة وذكاء .. رجل يتمتع بقسوة وضاورة ينتهز أهون الفرص للقتل .

تردد راوول فجأة وهو لا يدري أى تصرف يجب اتخاذه .. أذهلته المفاجأة وأحنقه إحساسه بأنه أقل من مسئول .. وقف جامداً لا يتحرك ويداه في جيوبه يحاول أن يحلل الموقف .. إنه أخطأ في اشتباهه في الفونس فيرانج . لم يكن هناك شك الآن في أنه برئ .. ولكن مامعنى هذه المذبحة ؟ واضح الآن أن آل فيرانج يملكون سرا لا يعرفونه وقد استولى البارون على مذكرات الكونت يونرفيل في البداية لاكتشاف هذا السر .. وإذا لم تفده المذكرات في شئ اختطف الشيخ برناردان

صمت وسكون مرفوع الذراع كما يفعل الأوغاد والأوباش . وبلغ الشاطئ .. هيا .. جهد آخر يتكلم الفونس فيرانج ، فلا شك أنه يعرف شيئاً وإلا لما تعرض لاعتداء البارون .. لا أحد في المكان .. لم يسمع أحداً صوت الطلقات .. لم يكن في الجو غير زقزقة العصافير .. لا حاجة به الآن للوثب فوق الجدران وتسلق المخزن .. كانت كل الأبواب مفتوحة ، فقد خرج البارون وشريكه مسرعين .. وأسرع راوول واجتاز البهو الذي تغطي اللوحات جدرانه ، حيث يقع في آخر سلم صغير صعد درجاته في طرفة عين ودخل المرسم .

كان الفونس فيرانج منهاراً فوق مقعده وهو لا يزال موثق القياد وقد اخترقت رأسه رصاصة .



www.rewity.com
سما الياقوت

هنا كان اختطاف الشيخ وتصرفات البارون تبدو معقولة ولكن لماذا اعتدى "الأخر" على آل فيرانج؟ هنا الغموض من جديد .

تنهد راوول طويلاً وبدأ كأنه يصحو . هل يفتش الجثة؟ لكن مالفايدة؟ لو أن المسكين كان يملك شيئاً ذا أهمية فإن العدو قد حصل عليه .. بيد أن راوول كان يملك ورقتين رابحتين ، وعليه الآن أن يلعب بهما ، والورقة الأولى هي البارون ، فبعد أن يمعن هذا الأخير التفكير والتروى في حفرته ، وبعد أن يعلم أن الفونس فيرانج قتل فإنه سوف يدرك أن من مصلحته أن يتكلم ، ومهما يكن فسوف يحصل راوول على خطاب انجلترا ، ثم يبقى عليه بعد ذلك أن يحمل الشيخ برناردان على الكلام .

هبط راوول السلم القصير واسترد نفسه لثاني مرة ، وأحس بأن الحياة تحمله من جديد ، كزورق يرفعه ماء البحر شيئاً فشيئاً .. وقبل أن يغادر البيت ألقى نظرة خبير إلى اللوحات التي رسمها جاك فيرانج ومهرها بتوقيعه وتمتم يقول :

- أقل من المتوسط .. مسكينة لوسيل ! لم يكن أبوك يتمتع بأية موهبة في الرسم .

وعندما هم بالخروج تمالك نفسه ومضى إلى المطبخ ، وأخذ بعض الخبز واللحم البارد :

- إذا أردت أن أحملها على الكلام فلا بد من إغرائها .

وابتسم لأنه كانت في الردهة مرآة كبيرة عكست صورته ، وأوماً برأسه لنفسه مشجعاً . لم تكن الساعة ساعة مزاح أو مداعبة ، ولكنه كان راض نفسه منذ وقت طويل على التغلب على مشاعره أمام الموت .. وعاد إلى طريق "الصخرة الكبيرة" وبحركة آلية اقتطع كسرة من الخبز وأخذ يأكلها وهو مسرع . وكان منظراً مذهلاً أن ترى هذا

ثم حصل بالدهاء والحيلة على خطاب انجلترا ولكن الخطاب لم يفده هو الآخر مادامت نيته قد اتجهت إلى الاعتداء على الفونس ولعل ذلك بسبب كرمة القديس جان . كل هذا يبدو واضحاً بما فيه الكفاية .. أما الشيء الغامض الذي لامعنى له ولا منطق والذي يزخر بالثغرات والمتناقضات فهو نشاط الآخر المخيف .. جريمتا الصخرة الكبرى والاعتداء المدبر على لوسيل والآخر الذي راح عمها هوبير ضحية له .. كلها فخاخ منصوبة ، ربما منذ أسابيع .. فماذا كل هذا البطء الذي يتسم بالمر والخبث ، وماهى الغاية التي يسعى إليها المجرم على وجه الخصوص .. هل يريد أن يكتشف السر هو الآخر؟ ولكن بأية وسائل ينوى الوصول إلى غرضه؟ هل يعلم بأمر المذكرات؟ والخطاب وكلمات السر ، تلك الكلمات التي اضطر برناردان إلى البوح بها تحت وطأة التعذيب؟ وهل ذهب أبعد من البارون في اكتشاف الحقيقة؟ وإذا كان السر مازال مستغلقاً عليه ، أفليس ذلك لأنه يقوم على أسس غامضة وعلى رموز عجز عن الاهتداء إلى حل طلاسمها؟

وعاد راوول يقول :

- أما أنا فيجب أن أهتدى إليها .. ربما لا ينقصنى غير نقطة واحدة فأنا لم أدرس العناصر التي أملكها بما فيه الكفاية .. ونسى المنظر الدرامى الذى يطالع عينيه ، وأسرع فأستعاد إلى ذهنه كلمات الشيخ برناردان وكلمات الأستاذ فرينيزو . ماذا قال موثق العقود؟ "لماذا أصر الملك لويس فيليب ، وهو هارب ، على العودة إلى قصر يونرفيل فجأة متحدياً هكذا خطر الموت؟" كانت هذه العبارة هي الأخرى مفتاحاً لحل اللغز ، فقد عاد الملك لسبب قهرى وقام بإجراء شهوده ايفاريسست فوتيريل الخادم الأمين ، أبو برناردان .. وقد انقضت عائلة الكونت يونرفيل ولكن آل فوتيريل مازالوا على قيد الحياة ، ومن

بالسلم ورأس كل منهما ماتزال مرفوعة إلى أعلى ، وكانا ملوثين بالدم وقد تجمدت عيناها رعباً وذعراً .. أصيب كل منهما فى مقتل وفاضت روحه على الفور .

ورأى راوول بعين الخيال رغماً عنه تلك اللحظة الأخيرة .. السلم يقلب باب الفخ والبارون يسرع قبل خادمه ولكن اليد المسلحة تظهر فجأة ، وتتطلق الرصاصتان تتبعهما حشرجة الموت ثم الصمت المطبق .

لم تعد لراوول القدرة على التحرك .. لم يخطئ حين خطر له أن البارون ورجاله ما هم إلا شركاء للوحش .. لقد لعب البارون دوره الأخير وخسر . أما "الأخر" فبعد أن تخلص من الفونس فيرانج تابع عملية الموت فى القبو ولم يعد أمامه إلا أن يهبط لى يأخذ خطاب انجلترا من جيب القتل .. والآن ؟

بعد استبعاد البارون يبقى الغريمان وجها لوجه .. راوول وشبح من المتعذر إمساكه .. شبح موجود فى كل مكان وغير موجود .. يضرب تارة فى بطنه بحذق غادر وأخرى بوحشية وبسرعة الكوبرا .. واخترقت فكرة مخيفة ذهن راوول فجأة .. برناردان .. مادام "الأخر" يعرف كل شئ ، ومادام يسبق غيره كما لو كان يقرأ أفكار خصمه فلعله يعرف الآن مكان الشيخ العجوز ! ولعله فى هذه اللحظة بالذات .. كلا .. لو حدث هذا فإنه ليكون أمراً فظيماً .. ولام نفسه لقضائه اليومين الأخيرين من غير عمل بجوار لوسيل الفاتنة .. ما كان يجب أن

وانتصب راوول واقفا ضاماً قبضته وهو يغلى من الغضب .. يجب أن يسرع بالعمل وأن ينقض على الآخر انقضاض الصاعقة وأن يدبر وسيلة للدفاع قبل أن يفوت الأوان .. واندفع خارج البيت ومن الهزيمة

الموظف البسيط الذى يرتدى جاكته فضفاضة من الجوخ وهو يأكل على ضوء القمر ويضم إلى صدره طبقاً من اللحم وبعض الخبز ويخاطب خياله المفرط الطول الذى يصاحبه فى سيره .

مساء الخير يادون كيشوت . يسرنى أن ألتقى بك ، فأنت لم تظهر إلا فيما ندر ، منذ بعض الوقت .. هل تسمح أن أغذك قليلاً فإننى لم أرك أبداً بمثل هذا الهزال .. ذلك إنك لقيت منهم الكثير .. أه .. ليس غريباً أن تدافع عن اليتامى كل يوم ، فهذا يضرب ذات اليمين وذات يضرب ذات الشمال . ولكن اعترف انك لن تكون أنت نفسك إلا إذا لفظ الجحيم أبالسته السوداء عليك . تعالوا أيها الأبالسة لى أمزقكم أرباً .. هذه الفطيرة لذيذة .. ذقها واستمتع بالحياة .. انهما فى انتظارى .. امض . كلا ، أنت على عجل دائماً تصور أننى أيضاً مثلك .. حذار ، فقد تقع على أم رأسك .. هاهو طريقك .

واندفع راوول فى الدرب الضيق ووقف أمام الكوخ .. لم يكن يقطع الصمت غير دوى الأمواج البعيد . ودخل ، وقال :
- مساء الخير أيها الصديقان ، لقد أتيتكما ببعض الطعام .
وجبة صغيرة تسندكما شيئاً ما .. فى مقدوركما أن تشكرانى على الأقل ماذا ؟ أغاضبان أنتما ؟

وفى حركة خرقاء فتش فى جيوبه بحثاً عن المصباح الكهربى دون أن يتخلى عن الطعام . وأضاءه أخيراً وأزاح الستارة وأفلتت من بين شفثيه سبة كان الفخ مفتوحاً وطرق السلم يبرز منه .. لقد هربا .. طارا .. ولكن من الذى خلبهما ؟ من "الأخر طبعاً" .. فلا بد أنه كان يراقبه وأسرع إلى الكوخ بمجرد أن رآه يغادره .. وألقى بالخبز والطعام على المائدة وعاد إلى القبو وبث ضوء المصباح داخله .

وأخذته غصة على الفور، فقد كانا موجودين .. كانا ملتصقين

حلقة .. فيكتور .

وتأهب لكى يحطم الباب وهز الأكرة فى غضب ولكنها دارت فى يده بسهولة وانفتح الباب .. لم يكن موصدا بالمفتاح .
- عجباً !

وأضاء مصباحه وأسرع يرتقى السلم فى غير حذر .. كانت فيكتور ممددة فوق فراشها موثقة اليدين ومكمه وفوق عينيها عصابة . ولم يفكر راوول فى أن يضيع الوقت فى تخليصها وإنما اندفع إلى الغرفة المجاورة .. كان برونو هو الآخر موثق اليدين والقدمين وفى فمه منديل .

- يا للشيطان !

وأفلتت قدمه إحدى الدرجات وكاد يقع لو لم يتشبث بالدرابزون . وكبا على ركبته ونهض وهو يعرج .. واندفع إلى غرفة برناردان .. كان المزلاج قد رفع من مكانه فدفع الباب بركلة من قدمه .. كانت الغرفة خالية واختفى العجوز .

أحس بالإعياء وتهاك فوق الفراش وأخذ رأسه بين يديه .. لم يكن هناك شك الآن فى أن الآخر قد عرف السر، فهو يملك الخطاب وبرناردان .. ولكن ما هو السر الذى مات بسببه كل هؤلاء الضحايا .. وعصف الألم براوول ونزف قلبه دما وأحس بحاجته إلى أن يلوذ بجوار فيكتور ، ومضى فقطع قيودها وأزال الكمامة عن فمها ودفن جبينه فى صدرها .

- فيكتور .. عزيزتى فيكتور ..

وبقى جامد الحركة مدة طويلة كما أنه أراد أن يستمد من صدرها قوة جديدة ، ولزمت فيكتور الصمت ولم تفكر فى الشكوى وذراعها

برز رجل المناسبات العظيمة الذى لا يمكن أن يوقفه شئ .. وأسرع نحو قمة الشاطئ حيث ترك السيدكار . وأدار المحرك وجلس على مقعد القيادة ، واندفع الموتوسيكل فى دفعة غاضبة . كلا .. لا يمكن أن يكون الوقت قد فات "الآخر" لايمك وسائل خارقة . ولكن لعله يستخدم سيارة .. إذن .. إن المسألة الآن مسألة مسألة سرعة ، وهى مباراة كان راوول واثقا من كسبها .

راح الموتوسيكل ينطلق بأقصى سرعة وراوول يهتز فوقه بشدة ولحسن الحظ كان ضوء القمر يملأ الطريق بنوره لأن السيدكار لم يكن مزودا بأية مصابيح ، وساقه راوول كيفما اتفق وهو يضغط على أسنانه وريح السباق تجمد العرق فوق جبينه . واندفع أكثر من مرة فوق العشب وأوشك أن يقع ، ولكنه كان يعود إلى الطريق فى إصرار ويندفع فى جوف الليل .. وعندما رأى بيت فيكتور الأبيض من بعيد لم يكن قد التقى بأحد ولم يسبقه أى أحد .. وكان وحده تماما ، وكان واثقا من أنه وصل قبل "الآخر" .. وضغط على الفرامل بشدة بحيث انزلق الموتوسيكل ودار به دورة كاملة ولكنه لم يعبأ بذلك ومضى نحو باب الحديقة وهو يترنح .. كان من الجنون أن يتملكه الخوف هكذا .. هل كان يترك العنان للخوف لكى يستولى عليه هكذا فيما سبق ؟ ولكنه لم يكن خوفا ، وإنما كان حرصا وحذرا . بل لعله إفراط فى الحرص والحذر ، وهو قد تصرف حتى الآن تصرفا أهوج وبدون ترو حقا ، ولهذا عاهد نفسه وهو يدفع باب الحديقة أن يضاعف الحراسة بعد ذلك . وطرق باب البيت ثلاث مرات وهو ينتظر أن تفتح فيكتور النافذة لأن نومها خفيف ، وتلقى إليه بالمفتاح .

صاح فى صوت خافت :

- فيكتور .. فيكتور .. افتحى لى ، وضاعف القلق خوفه وجف

الأحداث ، فهو قد عانى الكثير حتى الآن .

- إننى أسف يا زعيمى .. أه .. وإننى لغاضب من نفسى .. غاضب جدا .

- لا عليك يا صغيرى .. ليس الذنب ذنبك ، إذا كنا قد وقعنا على شيطان حقيقى .. بل إنك محظوظ ، فقد كان فى مقدوره أن يقتلك أنت أيضاً ، وإننى أتساءل لماذا لم يقتلك .
وضغط بشدة على ذراع برونو ثم قال :

- وهذا هو الأمر الذى يخيفنى ويثير حيرتى .. هناك منطق لا أفهمه .. إن نقطة الضعف عند الذين تغلبت عليهم حتى الآن هى أنهم يفكرون مثلى ، ولكننى أفكر أسرع منهم .. أما هو فإنه يحيرنى .
- وفيكتوار ؟

- اطمئن .. إنها بخير .. أصابها من الخوف أكثر مما أصابها من الضرر .. إن هذا الوحش يعرف كيف يمتنع عن الأذى عندما يريد .. تعال لكى تراها .

ومضى به إلى غرفة فيكتوار ، وكانت المرأة العجوز قد استردت قواها ، وقالت تخاطب راوول :
- أرح قلبى وطمئنى يا حبيبى .. ألن تكف أبداً .. ألسنت غنيا بما فيه الكفاية ؟

أجاب راوول فى اكتئاب :

- ولكننى لا أسعى وراء المال ولا وراء المجد ولا وراء أى شئ .. أننى أنود عن نفسى فحسب .. سوف تبقيين هنا يا فيكتوار ، وأعدك أنه لن يقع لك شئ بعد اليوم .. أما أنت يا برونو فعد إلى باريس .. وإذا احتجت إليك فسأبعث فى طلبك .

حول عنق ذلك الذى ربه وأطعمته وملاً حياتها صخباً ومأس .. ورفع رأسه أخيراً وقال :

- ماذا حدث ؟

- ولكننى لا أدرى . كنت فى المطبخ ، وسمعت حركة خلفى ، وحسبت أنه برونو فلم التفتت ، وأحسست بشئ يوضع حول رأسى وتملكنى الخوف وفقدت رشدى على الفور .. وعندما عدت إلى الوعى وجدت نفسى هنا موثقة اليدين والقدمين كما وجدتنى ..
- متى حدث هذا ؟

- حسنا .. قبيل الغداء .. كنت أعد عجة لأن برونو يحبها مثلك .. وكان فى الحديقة يجمع لى بعض البصل .. ولكن ماذا حدث له .

- إنه فى الغرفة المجاورة موثق هو الآخر .. ولاريب أنه يجد الوقت طويلاً . انتظرينى هنا يا عزيزتى فيكتوار .. سأتيك به .

ومضى راوول فقطع قيود برونو التعس ، ونزع المنديل عن فمه .
- أه .. أهذا أنت أيها الزعيم ؟ ولكن العجوز .. ماذا حدث له ؟
- اختطفوه .

- هذه غلطتى أنا .. كان يجب أن أحترس ، ولكن كان كل شئ هادئاً . ثم كنت أعرف إنك قريب .. كنت فى الحديقة وتلقيت ضربة على رأسى .

- ألم يتكلم برناردان ؟

- هو ؟ .. إنه أشد عنادا من البغلة .. ولا حتى صباح الخير أو مساء الخير ..

- سوف يتكلم الآن . سوف يعمل خاطفه على ذلك مادام لم يقتله كما .. توقف راوول .. لاجابة به لأن يطلع برونو على مجرى

حسنا أيها الزعيم ، ولكن لعك لا تطردني ، فإنني مازلت جديرا
بأن أخدمك .. لو أنه لم يضربني من الخلف .

وراح يدعك رأسه في تفكير : عندما أفكر أنتي لم أسمعته وهو
يقترّب مني .

قالت فيكتوار :

- هل تريد فنجانا من القهوة ؟

- نعم .. وأشكرك يا عزيزتي فيكتوار .

تمت

www.rewity.com

سما الياقوت